المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الاستهلال بالاستفهام في شعر الأخرس

Initialization with Interrogative Questioning in Al-Akhras's Poetry

بقلم الباحث

ناصر بن تركي بن عويجان الدوسري

ماجستير الأدب والنقد من قسم اللغة العربية

كلية التربية بالخرج - جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار مارس ٢٠٢٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

الاستهلال بالاستفهام في شعر الأخرس

ناصر بن تركي بن عويجان الدوسري

ماجستير الأدب والنقد من قسم اللغة العربية كلية التربية بالخرج - جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : nasser.tr21@gmail.com

الملخص

يستهدف هذا البحث التعرف إلى الشاعر، والاستفهام وأهميته. وبيان أدوات الاستفهام في مُستهل شعر الأخرس. وتوضيح الاستهلال بالاستفهام وعلاقته بموضوعات قصائد الأخرس. اقتضت طبيعة البحث استخدام المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال تتبع أدوات الاستفهام المستخدمة في مطالع شعره، وكيف قام باستخدامها. ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث تعددت الأغراض الشعرية في القصائد المفتتحة بالاستفهام، فجاءت في المدح والهجاء وفي الغزل والرثاء، كما أنه استخدم الاستفهام للتعبير دهشته، وحيرته، وشكواه، وحنينه، ونفيه وإثباته، وتمنيه، واستنكاره، واستبطائه، وتعظيمه لممدوحه، وغير ذلك. أضاف الاستهلال بالاستفهام لقصائد الأخرس حسن المطلع، فقد اعتنى بمطلع قصيدته؛ لعلمه بأهميتها لدى المتلقي، فوظف الاستفهام خير توظيف. كما أن الشاعر طرق أوزان الشعر العربي المعروفة، مثل: الطويل والكامل والرجز وغيرها من بحور الشعر، والأخرس يُعَدُّ من الشعراء الذين اتسموا بالكثرة المفرطة في إنتاجه الشعري. ومن نتائج البحث أيضًا أن للاستفهام في مطالع شعر الأخرس ارتباطًا وثيقًا ببقية النص الشعري، فهو بمنزلة أسئلة تُطرح في الاستهلال لتربط النص من مطلعه إلى خاتمته. ووصى البحث بأن هناك حاجة ماسّة للعناية بشعر الأخرس ودراسته دراسة أكثر تفصيلًا، كما أنه وصى بدراسة شعراء عصره – القرن التاسع عشر – والعناية بشعرهم، فالعديد منهم له إنتاج شعري لم يُعتنَ به، والبعض منهم لم تتم دراسة إنتاجه بعدُ.

الكلمات المفتاحية: الاستهلال ، الاستفهام ، الشاعر الأخرس..

Initialization with Interrogative Questioning in Al-Akhras's Poetry

Nasser Ibn Turki Ibn Owaijan Al Dosari
Master's degree in Literature and Criticism,Department of Arabic Language, College of Education, Al Kharj,Prince Sattam Ibn Abdul-Aziz University, Kingdom of Saudi Arabia .
Email: nasser.tr21@gmail.com

Abstract

The study aims to identify both the poet, interrogative questioning and its importance. It also explains the tools of interrogative questioning at the inception of Al-Akhras's' poetry by elucidating the inception with interrogation and its relationship to the themes of Al-Akhras's poems.The study involved adopting descriptive and analytical approaches by tracking the interrogative tools employed in Al-Akhras's poetry and the way he used them.Among the most prominent findings of the study was the multiplicity of poetic purposes in the poems that began with interrogative questioning; they were used in panegyric, satire, elegy, and love poetry. The interrogation was also used to express the poet's amazement, confusion, complaint, nostalgia, disapproval, affirmation, wishing, denunciation, introspection, glorification of the person he praised, and so on.Al-Akhras's poetry was shaped well by his use of interrogative questioning at the inception of his poems. He was mindful of the recipient and knew the importance of the beginning, thus incorporating questioning in the best way possible. Additionally, the poet employed various forms of Arabic poetic meters such as at-Taawil (the long), al-Kaamil (the complete), al-Rajaz (the poetry Jackass), and other forms to enhance the quality of his work.Al-Akhras is one of the poets who was characterized by the prolificacy of his poetic output. Another finding of the study was that the interrogative questions he posed at the beginning of his poems were closely linked to the rest of the text. These questions served as a way to connect the beginning of his poems to the end.The study suggests that there is an urgent need to consider Al-Akhras's poetry and conduct a detailed analysis of his poems. Additionally, the study recommends studying the poets of the nineteenth century, who have produced a vast amount of poetry that has not yet been examined. It is important to take care of their work, as some poets have not yet received the attention they deserve.

Keywords: dir Initiation, interrogative questioning, Al-Akhras the poet.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فتختص لغتنا العربية بأساليب كثيرة ومتعددة، منها: أسلوب الاستفهام، وهو من الأساليب الإنشائية التي حظيت باهتمام كبير من قِبل علماء النحو والبلاغة والأدباء والنقاد؛ لما له من تأثير في النص الشعري.

كما أن مطلع القصيدة نال اهتمامًا لا يقل عن الاستفهام، فعلماء الأدب ونُقّاده اعتنوا به قديمًا وحديثًا.

والأخرس شاعر مُجيد طرق مختلف أغراض الشعر، وشعره مطبوع غنائي، كما أن كثرة أدوات الاستفهام في شعر عبد الغفار الأخرس هو ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، وبخاصة مطالع القصائد؛ لما لها من أهمية في جذب انتباه المتلقي، كما أنّ الاستهلال عمومًا محلّ اهتمام الشعراء والنقاد سواء أكان في القديم أم في الحديث.

أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث في أنه تناول أسلوبًا من الأساليب الإنشائية في شعر شاعر لم يأخذ حقه من الدرس والعناية بشعره، بالإضافة إلى أن موضوع الاستفهام موضوع مهم أيضًا ويتضمن دلالات ومعاني لم يهتم بها بعض الدارسين والباحثين، كما أن الموضوع دُرس دراسة أدبية لتبين أوجه الجمال في مستهل القصائد وتأثير دخول الاستفهام عليها.

أسئلة البحث:

١- ما أدوات الاستفهام في مُستهلّ شعر الأخرس؟

٢- ما الاستهلال بالاستفهام، وما علاقته بموضوعات شعر الأخرس؟

أهداف البحث:

١. التعرف إلى الشاعر، والاستفهام وأهميته.

٢. بيان أدوات الاستفهام في مُستهل شعر الأخرس.

٣. توضيح الاستهلال بالاستفهام وعلاقته بموضوعات قصائد الأخرس.

الدراسات السابقة:

أما الدراسات السابقة فلم يتناول أحد موضوع الاستهلال بالاستفهام عند الأخرس – على حد علمي –، أما موضوع الاستفهام فهناك دراسات كثيرة في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي الأدب والشعر، ومن الدراسات في الاستفهام:

١/ الاستفهام في الصحيحين خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، للدكتور/ عبد العزيز صالح العمار (رسالة دكتوراه) جامعة الإمام.

٢/ الأساليب الإنشائية في ديوان المتنبي، للدكتور/ سليمان عبد العزيز المنصور (رسالة دكتوراه) جامعة الإمام.

٣/ أسلوب الاستفهام في شعر الأعشى.. دراسة بلاغية، للدكتور/ صالح كاظم صكبان، جامعة واسط.

إضافة إلى عدد من الدراسات المشابهة لما سبق.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة؛ فافتُتح البحث بمقدمة احتوت على الخطوط العريضة لما جاء في البحث، ثم تمهيد انقسم إلى قسمين: تمهيد عن الشاعر، وتعريف للاستفهام وأهميته.

أما الفصل الأول: أدوات الاستفهام في مُستهل شعر الأخرس، فانقسم إلى مبحثين: حرفَا الاستفهام في شعره، وأسماء الاستفهام في شعره.

وجاء الفصل الثاني: الاستهلال بالاستفهام وعلاقته بموضوعات القصيدة، وانقسم إلى مبحثين:علاقة الاستفهام بالفكرة الأولى،وعلاقةالاستفهام بخاتمة القصيدة.

ثم خُتم البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.

منهج البحث:

استخدم الباحث الدراسة الوصفية التحليلية، وذلك من خلال تتبع أدوات الاستفهام المستخدمة في مطالع شعره وكيف قام باستخدامها.

وقد ساعدنا في هذا البحث مجموعة من المصادر والمراجع، أبرزها: ديوان الأخرس، والطراز الأنفس في شعر الأخرس، والعمدة لابن رشيق، والبلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين وغيرها... .

وكأي بحث، فقد واجهتنا مجموعة من الصعوبات التي وقفت دون إخراجه على الشكل الذي تمنيناه، فهو لا يخلو من النقص والخلل، وهذه سنة الله في الكون، فالكمال لله وحده. وكان أبرز تلك الصعوبات: مشكلة ضيق الوقت، وغزارة شعر الأخرس، وعدم وجود شروح لشعره؛ مما أخذ مني جهدًا وقتًا طويلًا في فهمه وتحليله.

تمهيد:

أ- عن الشاعر:

هو السيد عبد الغفار بن عبد الواحد بن وهب الموصلي البغدادي البصري، وُلد في مدينة الموصل، وذلك بعد عام ١٢٢٠ه – ١٨٠٥م على أرجح الأقوال[١].

وقضى طفولته وصباه في الموصل، وفيها أخذ قسطًا من العلم، ثم انتقل إلى بغداد في شبابه وأخذ العلوم اللغوية والأدبية على يد العلامة أبي الثناء الآلوسي ونال إجازته.

وظهرت مواهبه الأدبية، وسطعت شاعريته في مجالس بغداد ومنتدياتها، فكان حاضر البديهة، سريع الخاطر، حلو المجالسة. وكان يشكو من حُبسة في لسانه، فلا يستطيع أن ينشد معها شعره، ويكاد يختنق إذا تكلم، فمدح والي بغداد بقصيدة وذكر فيها حاجته إلى العلاج على نفقة الوالي، ومنها قوله [من المنسرح]:

إن أياديك منك سابغةٌ ... عليَّ قِدمًا في سالف الحِقبِ
هذا لساني يعوقه ثِقَلٌ ... وذاك عندي من أعظم النُّوَبِ
فلو تسبَّبتَ في معالجتي ... لنلت أجرًا بذلك السببِ
وليس لي حرفةٌ سوى أدبٍ ... جمٍّ ونظْم القريض والخُطَبِ

فأمر الوالي بإرساله إلى الهند، فقال له الطبيب أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق لسانك وإما أن تموت، فقال مقولته المشهورة: ((لا أبيع كلي ببعضي)) ورجع إلى بغداد[٢].

---

(١) ديوان عبد الغفار الأخرس، حققه وعلق عليه: الخطاط وليد الأعظمي، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط٢، ٢٠٠٨م، المقدمة ١١.

(٢) انظر: الطراز الأنفس في شعر الأخرس، أحمد عزت الفاروقي، مطبعة الشركة المرتبية، إستانبول ١٣٠٤هـ، ٨. ومقدمة ديوان الأخرس ١٢. والمسك الأذفر، للسيد/ محمود شكري الآلوسي، مطبعة الآداب، بغداد، ١٣٤٨هـ، ١٧.

وسببت له هذه العلة عقدة نفسية، وكان الأخرس يقدم قصائده إلى ممدوحيه مكتوبة بخط يده –وكان خطاطًا بارعًا مجيدًا–، أو يلقيها بعض أصحابه نيابة عنه، فقد ألقى عنه الشاعر عبد الباقي العمري قصيدة مدح في أبي الثناء الآلوسي في مجلسه.

وكانت حياته رتيبة مملة، فلم ينل وظيفة يتقاضى منها راتبًا يعيش منه، ولم تكن له حرفة، فلم يكن له إلا الأدب والشعر.

وتوفي في يوم عرفة سنة ١٢٩١ه – ١٨٧٤م، وشيّع صباح يوم عيد الأضحى ودفن في الزبير(١).

ويميل الأخرس في شعره إلى المحسنات البديعية، كالطباق والجناس والتورية وغيرها.

وتعددت أغراض شعره الدالّة على موهبته، فاستأثر المدح، ثم الغزل، والرثاء، والتهاني، والوصف، والمداعبات.

وكان للخمرة نصيب كبير من شعره، وكذلك وصف الديار وبكاء الأطلال، ويستهل بذلك أغلب قصائده، ويسترسل ويكاد ينسى القصد من قصيدته.

وشعره مطبوع غنائي، ويقول فيه العلّامة محمود شكري الآلوسي: "وهكذا جميع شعره، يكاد يطير من لطفه، ويسيل من ظرفه، يهز الأعطاف وينعش العقول"(٢).

وقالت عنه الدكتورة/ عاتكة الخزرجي: "الأخرس عندنا في العراق كالبارودي في مصر: نهاية ظلام وبدء نور، فهو جسر وطيد البناء قوي الدعائم استمدّ أعمدته من التراث الأصيل في أزهى عصوره وأروع صوره، بل هو همزة الوصل بين تالدنا المخلد وطريفنا المجدّد والشرارة الأولى ليوهج النهضة الحديثة

(١) ديوان الأخرس، المقدمة ١٥. الطراز الأنفس، المقدمة ٨.

(٢) المسك الأذفر، ١١٩.

التي تمخضت فيما بعد عن عبد المحسن الكاظمي ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي وسواهم من عمالقة الشعر العراقي الحديث"[١].

فالأخرس يعتبر بداية النهضة الأدبية الحديثة في العراق، وعلى أسلوبه المشرق سار الرصافي والزهاوي والأثري والشبيبي من بعده.

والأخرس شاعر موهوب مكثر، لكنه لم يكن يجمع شعره في حياته، ولم يحتفظ بقصائده بعد إنشادها أو إرسالها إلى الممدوحين، ويرجع الفضل في جمع شعره إلى أحمد عزت باشا العمري، فجمعه في كتاب سمّاه (الطراز الأنفس في شعر الأخرس)، ووضع فيه ٣٣٨ قصيدة. وأضاف الخطاط وليد الأعظمي ٤٠ قصيدة ليصبح مجموع قصائده ٣٧٨ قصيدة، وجمعها في كتابه (ديوان الأخرس).

ب- تعريف الاستفهام وأدواته:

الاستفهام في اللغة:

جاء في لسان العرب: "الفَهْم: معرفتك الشيء بالقلب. فهِمه فَهْماً وفَهَماً وفَهامة: علِمه؛ الأخيرة عن سيبويه. وفَهِمت الشيء: عَقَلته وعرفته. وفَهَّمت فلاناً وأَفْهَمته، وتفَهَّم الكلام: فهِمه شيئاً بعد شيء ... وأفهَمه الأمر وفَهَّمه إياه: جعله يَفهمه. واستفهَمه: سأله أن يُفهمه"[٢].

وجاء في المعجم الوسيط: "فَهمه فهمًا: أحسن تصَوّره وجاد استعداده للاستنباط، وَيُقَال: فهمت عَن فلَان وفهمت مِنْهُ فَهُوَ فاهم وَهُوَ فهم وفهيم (ج) فهام. (أفهمهُ) الْأَمر: أحسن تَصْوِيره لَهُ ... (تفهم) الْكَلَام: فهمه شَيْئًا فَشَيْئًا. (استفهمه) سَأَلَهُ أَن يفهمهُ وَيُقَال استفهم من فلَان عَن الْأَمر طلب مِنْهُ أَن يكْشف عَنهُ. (الْفَهم) حسن تصور الْمَعْنى"[٣].

---

(١) نظرات في شعر الأخرس، عاتكة الخزرجي، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ٢٧، ١٩٧٦م، ٢٨٠.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٩٩م، ج١٠، ٣٤٣.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ج٢، د.ت، ٧٠٤.

فكلمة (استفهام) أصلها مشتق من مادة (ف ه م) وهي تدل على العلم بالشيء ومعرفته، وإذا أضيف للفعل الثلاثي الهمزة والسين والتاء أصبحت بمعنى الطلب، مثل: استفهم أي طلب الفهم والمعرفة.

الاستفهام في الاصطلاح:

جاء في كتاب التعريفات أن الاستفهام: هو "استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور"(١).

وعرفه الهاشمي بقوله: "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته"(٢).

وأدوات الاستفهام كثيرة، وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- حرفَا الاستفهام:

وهما الهمزة، وهل.

ب- أسماء الاستفهام:

ما – ماذا: تُستخدم في الاستفهام عن غير العاقل، وعن حقيقة الشيء أو صفته سواء كان عاقلًا أم غير ذلك، مثل: ما الاستفهام؟ ماذا فهمت؟

مَن – مَنذَا: تُستخدم في الاستفهام عن العاقل.

متى: وهي للاستفهام عن الزمان عمومًا.

أيّان: هي للاستفهام عن الزمان أيضًا، لكن (متى) أكثر استعمالًا، وهي تُستعمل في مواضع التفخيم.

أين: وهي للاستفهام عن المكان.

أنّى: تُستخدم تارة بمعنى كيف، وتارة أخرى بمعنى مِن أين.

---

(١) التعريفات، عليّ بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٣م، ١٨.

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، للسيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ٧٨.

كيف: وهي للاستفهام عن الحال.

كم: وهي للاستفهام عن العدد، مثل: كم درهمًا لديك؟ وكم رجلًا رأيت؟

أيّ: وهي للاستفهام عن العاقل وغير العاقل، بحسب ما تضاف إليه[١].

وتنقسم أدوات الاستفهام من حيث الطلب إلى ثلاثة أقسام:

١) ما يُطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهو: الهمزة.

٢) ما يُطلب به التصديق فقط، وهو: هل.

٣) ما يُطلب به التصور فقط وهو: بقيّة ألفاظ الاستفهام[٢].

وأدوات الاستفهام الواردة في مطالع قصائد الأخرس هي: الهمزة – هل – ما – من – أين – متى – كيف – أيّ.

(١) انظر: مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكّاكي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ٣١٠– ٣١٣.

(٢) جواهر البلاغة، ٧٨.

الفصل الأول: أدوات الاستفهام في مُستهلّ شعر الأخرس

المبحث الأول: حرفَا الاستفهام في شعره:

١) الهمزة:

ورد الاستفهام بحرف الهمزة في ديوان الشاعر في مُستهلّ ثماني عشرة قصيدة تقريبًا، نذكر بعضًا مما ورد في ديوان الشاعر [من الطويل]:

أتذكرُ أطلالًا تعفَّت وأرسُما ب (ذات الغضا) في (الجَزْعِ) من

منازلَ أحبابٍ بها نَزَلَ الهوى فلم يُبْقِ إلا مدنفَ القلب مُغرَما[١]

استهل الشاعر قصيدته بالاستفهام بالهمزة في كلمة (أتذكر)، وهي تُستعمل لطلب التصور والتصديق، وهنا دخلت الهمزة على الفعل المضارع (تذكر)، وغرض الشاعر بهذا الاستفهام التشويق وجذب انتباه المتلقي لكامل القصيدة.

فالشاعر يريد أن يبدأ قصيدته – وهي من الطويل – بذكر الديار والوقوف على الأطلال كما فعل الشعراء في العصر الجاهلي ومن جاء بعدهم ونهج نهجهم، فذَكَر منازل الأحباب – وقد سماها باسمها – ووقف عليها وبكى متبعًا بذلك سنن من قبله، فقد جرت العادة عندهم – أيّ شعراء الجاهلية – باستهلال قصائدهم بذكر ديار المحبوبة والبكاء على أطلالها والوجد بفراق ساكنيها، ويُعَد هذا الاستهلال من الأغراض التي طرقها الشعراء بكثرة وأجادوا فيها.

والشاعر هنا يخاطب نفسه متسائلًا، وبدأ بالاستفهام للسؤال عن تلك الذكرى، وهذا الاستفهام كفيل بتبيين ما يريده الشاعر من وصف تلك الديار والوقوف على تلك الأطلال.

ومن الملاحظ أن الهمزة التي جاءت في مُستهل القصيدة دخلت على الفعل، وهذا هو الأصل كما جاء عند سيبويه في قوله: "حروف الاستفهام بالفعل أولى، وكان الأصل فيها أن يُبتدأ بالفعل قبل الاسم"[٢].

---

(١) الديوان، ٢٣.

(٢) الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ، ج١، ١٣٧.

وفي قصيدة أخرى – وهي من الكامل – استهل الشاعر قصيدته بالاستفهام بحرف الهمزة في قوله [من الكامل]:

أتُـراكَ تعـرفُ عِلَّتـي وشِـفائي؟ يا داءَ قلبي فـي الهـوى ودوائـي

ما رقَّ قلبُـكَ لـي كـأنَّ شـكايتي كانت لمَسْـمَعِ صـخرةٍ صـمّاءِ[1]

فهنا بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام بالهمزة في كلمة (أتُراك) وهي جملة فعلية، وغرضه من ذلك الاستفهام عتاب المحبوب واستنكار ما فعله به من هجر وتعذيب، فهو داؤه ودواؤه، فهو يتساءل إن كان محبوبه يعرف علّته وعلاجه، فهو عاشق هائم ولم يجد من معشوقه إلا الصدود والهجران.

ثم يتساءل بعد ذلك بعدة أبيات فيقول:

هل يعلـم الواشـون أنّ صـبابتي كانـت بلحـظ مهًـا وجيـدِ ظبـاءِ

وتجرُّعي مضَضَ الملام مـن التـي حَلّتْ عُقَيْبَ (الجزعِ) في (الجَرعاءِ)

فالشاعر يشتكي مما يعانيه من الهوى وقسوة محبوبه، واستخدم الاستفهام في أكثر من موضع في هذه القصيدة ليبين ما يشعر به من شوق وغرام لمحبوبه، ويجسّد معاناته من هجر ذلك المحبوب، فكانت التساؤلات وسيلة للبوح بما في نفسه من شكوى.

وفي قصيدة أخرى – هي من الكامل – يقول في مطلعها متسائلًا:

عـادَ المُتـيَّمَ فـي غرامـك داؤُهُ أهُـوَ السـليمُ تَعـودُهُ آنـاؤُهُ

فتَأجَّجَـتْ زفراتُـهُ وتلهَّبَـتْ جمراتُـهُ وتوقّـدتْ رمضـاؤُهُ

حسـبُ المتـيَّم وَجْـدُهُ وغرامـهُ وكفاه مـا فعلـت بـه بُرحـاؤُهُ[2]

فالشاعر استفهم في البيت الأول من قصيدته بالهمزة التي دخلت على الضمير (هو)، والشاعر أراد التعبير عن سؤاله باستخدام الهمزة وأضاف إليها

(١) الديوان، ٣٥.

(٢) الديوان، ٥٠.

(هو) والتي عادةً ما تأتي بعدها للتأكيد على السؤال، كما أن الشاعر أورد الاستفهام وبعده جملة اسمية على عكس الأبيات السابقة التي أورد بعدها جملة فعلية، وذلك لأن الجملة الاسمية أكثر ثباتًا من الجملة الفعلية.

والاستفهام هنا جاء في عجز البيت ليؤكد على معاودة داء الغرام له، فالشاعر مُستبدٌّ به الحب والشوق، فهو الذي اشتدت زفراتُهُ وتلهبت جمراته وتوقدت رمضاؤه، فهو يصف حاله الذي وصل إليها من الغرام الذي أصبح داؤه، ويتساءل وهو بذلك يريد من المحبوب تصور حالته التي يمر بها بأسلوب تقريري إخباري.

ونجد الاستفهام في مُستهل قصيدة أخرى – هي من المتقارب – يمدح فيها السيد علي القادري وهو نقيب الأشراف ببغداد، ويقول في مطلعها [من المتقارب]:

أعادكَ يا سعدُ عيدُ الهوى؟ وأنتَ مُلِمٌّ بدار اللّوى

فأصبحتَ تنحرُ فيها الجفونَ كما تنحَرُ البُدْنَ يومَ القِرَى

فمِن حقّ طرفي هذي الدموعُ ومن شأن قلبي هذا الجوى[1]

فالشاعر هنا استهل قصيدته بالاستفهام بحرف الهمزة في كلمة (أعادك) وهي جملة فعلية، وهنا الشاعر يسأل صاحبه بأسلوب تقريري ويريد منه الاعتراف، فيسأله أعادَه الحبّ والهوى عندما أتى دار اللّوى ونزل بهم وزارهم زيارة غير طويلة، واللِّوى وادٍ في أرض بني سليم من نجد، ويُطلق أيضًا على مقطع الرمل[2].

وشبّه الشاعر صاحبه بنحره للجفون كنحر البهائم يوم القِرى، وهو بذلك يشير إلى الدموع التي تنهمر من الجفون، فهي تشبه حالة الحزن والقهر التي تصيب البهائم عند نحرها.

---

(١) الديوان، ٥٣.

(٢) انظر: نفسه، ٥٣.

٢) هل:

ورد الاستفهام بحرف (هل) في ديوان الشاعر في مُستهل اثنتي عشرة قصيدة تقريبًا، نذكر بعضًا مما ورد في ديوان الشاعر:

نجد الاستهلال بالاستفهام عند عبد الغفار الأخرس في قصيدة – هي من الخفيف – يقول في مطلعها:

هل تَركتُمْ غيرَ الجَوى لفؤادي ... أو كَحَلْتُمْ عيني بغيرِ السُّهادِ

قد بَعُدْتُمْ عن أعيُنٍ فهْي غَرْقَى ... بدموعي ولي فؤادٌ صادِي

ثمَّ وكّلتمُ السُّهادَ عليها ... يمنعُ العينَ عن لذيذِ الرُّقادِ[١]

استهل الأخرس قصيدته مستفهماً بحرف (هل) وهي يُستفهم بها عن التصديق ولذا فالجواب عنها ب (نعم) أو (لا)؛ وذلك لإرادة إثبات النسبة أو نفيها[٢].

وحرف الاستفهام هنا دخل على فعل ماضٍ، والشاعر يعاتب الأحبة مما يعانيه من شدة العشق والحزن بسببهم، فعيونه لا تتكحّل منهم بغير الأرق لبعدهم عنه، فهو عطشان لقربهم ولا يريد جفوتهم التي تمنع عينه من لذيذ النوم.

ثم يكمل تساؤلاته التي تعبر عن معاناته فيقول في البيتين الرابع والخامس:

مَنْ مُجيري منَ الأحبَّةِ يجفو ... نَ وتعدو منهم علَيَّ العَوادي

علَموا أنَّني عليلٌ ومَنْ لي ... أنْ أرى طَيفهُم من العُوّادِ

فتكرر الاستفهام في البيتين بأداة الاستفهام (من) لبيان حالته التي يعيشها من ألم وحزن ودمع لا يقف بعد فراق الأحبة، فالتكرار يدل على تأكيد معاناته وتثبيتها في ذهن المتلقي.

وفي قصيدة أخرى – هي من المتقارب – يمدح فيها والي بغداد الوزير علي رضا باشا اللاظ يقول متسائلًا:

---

(١) الديوان، ٦٣.

(٢) انظر: مفتاح العلوم، ٣٠٨، ٣٠٩.

ألا إنَّ هـــذا الفـــؤادَ اضـــطرمْ فهـلْ مـن خمـودٍ لهـذا الضَّـرَمْ
وفـــي كـــلِّ جارحـــةٍ لوعـــةٌ تثـورُ وفـي كـل عضـوٍ ألَـمْ
وأيقَـظَ وَجْـدِيَ بـرقٌ يلـوح وقد نـام عـن أعـينٍ لَـم تَـنَمْ(١)

فالشاعر تساءل في مطلع القصيدة بحرف (هـل) وجـاء مسـبوقًا بحـرف الاستئناف (الفاء)، والاستفهام هنا جاء للتمني لما فيه من قوة التأكيد، ففؤاد الشاعر اضطرم من شدة الغرام، وكل جوارحه وأعضائه تعاني من لوعة الهـوى، فهـو يتساءل متمنيًا خمود هذا الغرام الذي أضرّه. والشاعر لجأ للاستفهام ولذكر الأحبَّةِ وذكر الهوى والغرام قبل أن ينتقل إلى الغرض الأساسِ من القصيدة وهـو مـدح الوزير.

ونجده في قصيدة أخرى – هي من الخفيف – يستهل بالاستفهام فيقول:

هَل عَرَفْتَ الـديارَ مـن آلِ نُعمَـى ومَحلًّـا عَفـا لِبَـيْنٍ ألمَّـا
تُنكِـرُ العـينُ بعـد معرفـةٍ مـن هـا طلـولاً كأنَّمـا كـنَّ رَقْمـا
فَسَـقى الأرسُـمَ الـدَّوارسَ دمـعٌ لم يغادرْ من أرسُمِ الـدارِ رَسـما(٢)

استهل الأخرس هذه الأبيات مستفهماً بالحرف (هل) وقد دخلت على جملـة فعلية مثبتة فعلها ماضٍ، وجاء الاستفهام للحنين لتلك الديار التي تغيرت معالمها بعد أن أصبحت خالية من الأثر ولم يَعُد يسكنها أحد لفُرقة أصابتهم، فعينه تنكر الأطلال بعد أن كانت تعرفها، فالاستهلال بالاستفهام جاء مناسبًا للحيرة والحنين التي يعيشها الشاعر.

واستهلال القصيدة بذكر المنازل والديار قد تكرر كثيرا في ديوان الأخرس، وقد أجاد الشاعر في هذه المطالع، فوصل من خلالها إلى مبتغاه بصورة جيدة.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من الوافر – متسائلًا:

---

(١) الديوان، ٨٢.

(٢) الديوان، ٩٤.

ألا هَـــلْ للمُتـــيَّمِ مـــن مُجيـــرِ؟ كئيـــبٍ ذي فـــؤادٍ مُســـتطيرِ
يقلِّبُـــهُ الأَســـى ظَهـــراً لـــبطنٍ ويُسْـــلِمُهُ إلـــى حَـــرِّ الزَّفيـــر
وكيـــفَ يَقَـــرُّ بـــالزفراتِ صَـــبٌّ وفـــي أحشـــائه نـــارُ السَّـــعير[1]

استهل الشاعر أبياته بحرف الاستفهام (هل)، فهو يستنكر وجود مـن يجيـر العاشق الهائم لدرجة تصل إلى فقْد العقل، والشاعر استعان بالاستفهام بهل ليصـف ما به من حيرة وقلق وحزن وألم تسبب بها العشق والهوى، فالاستفهام جاء كأنـه بوابة ينفجر الشاعر بهمومه وآلامه من خلالها ويبثّها للمتلقي حتى يشاركه فيهـا، فيصف ما يعانيه العاشق وصفًا رقيق المعنى حلو التشبيه فهو بذلك يتغلغـل إلـى نفوس مستمعيه.

ويعود ليتساءل في البيت الثالث بأداة الاستفهام (كيف)، ليُكمل ما بـدأه مـن شكوى من العشق والغرام، فهو يكرر الاستفهام بأداة مختلفة لتأكيد الشكوى وتثبيتها في ذهن المتلقي.

(١) نفسه، ١٢٢.

المبحث الثاني: أسماء الاستفهام في شعر الأخرس

١) ما:

إن اسم الاستفهام (ما) يُستخدم "لغير العقلاء، ويُطلب بها تارة شرح الاسم ... وتارة يطلب بها حقيقة المسمى"(١).

ووردت أداة الاستفهام (ما) في شعر الأخرس في مُستهل تسع قصائد تقريبًا، نذكر بعضًا مما ورد في ديوان الشاعر:

يقول الشاعر في مطلع قصيدة – هي من الطويل – متسائلًا:

ألِمَّا علـــى لَـــوْمي وجِـــدًّا مُجَـــدَّدَا فإنِّي لأدري ما الضَّلالُ وما الهُـــدَى

فمَن مبلغُ السُّـــلوانِ عنِّـــي بـــأنني فَنيـــتُ وشَـــوقي لا يـــزالُ مُخَلَّـــدَا

عذولي انتصـــاحٌ منـــك لا أســـتفيدُهُ ومن عَدَّه عدلاً فقد جارَ واعتَـــدى(٢)

استهل الشاعر قصيدته مستفهماً بالأداة (ما) التي يسأل بها عن غير العاقـــل، وقد دخلت جملة اسمية، وتكررت الأداة في قوله (ما الضلال) و (ما الهدى)، وقـــد سُبق الاستفهام بفعلي أمر في قوله (ألِمّا ، وجدّا)، فالشاعر يخبر من يلومـــه بأنـــه يعرف معنى الضلال ومعنى الهدى، وأن اللوم لا يفيـــده لشـــدة تعلّقـــه بمحبوبـــه، والضلال والهدى متضادّان واختارهم الشاعر ليبين معرفته وصـــحّة عقلـــه وأنـــه راضي بما يواجهه من محبوبه، فجاء الاستفهام بأسلوب تهكم.

ويعود ليتساءل في البيت الثاني بالأداة (من)، ليؤكد على أنه سيفنى وشوقه ما يزال مخلدًا، وهو يريد إثبات حبه ورفضه لكل لوم يأتيه على هذا الهوى، ويبين أن كل نصيحة يتلقاها من عذول لن يستفيد منها. وتتابع أساليب الإنشاء أسهمت فـــي تأكيد الشاعر على رفضه للوم العذول.

---

(١) البلاغة الواضحة، عليّ الجارم ومصطفى أمين، مكتبة البشرى، باكستان، ط١، ٢٠١٠م، ١٨١.

(٢) الديوان، ١٨٦.

ويقول في الرثاء [من الكامل]:

مـــا لـــي أودِّعُ كـــلَّ يـــومٍ صـــاحبًا إذ لا تلاقِـــيَ بعْـــدَ طـــولِ فِـــراق
وأُصارِمُ الأحبـــابَ لا عـــن جَفْـــوَةٍ منِّـــــي ولا متعَرِّضًـــــا لشِـــــقاق
فـــــارقتُهُمْ ومـــــدامعي مُنهلَّـــــةٌ وجـــوانِحي للبَـــيْنِ فـــي إحـــراق[1]

استهل الشاعر قصيدته متسائلًا بأداة الاستفهام (ما) وأتى بعدها بشبه جملـــة، فالشاعر يتعجب بالاستفهام عن وداعه كل يوم لأحد أصحابه وداعًا لا تلاقي بعده، فهذا الفراق ليس فراق جفوة أو خصومة بل فراق الموت الذي حـــال بينـــه وبـــين أحبابه وجعل مدامعه عليهم منهلّه، والشاعر يعيش في حالة من الحيـــرة والتأمـــل والحث على التفكير في حقيقة الموت وفقد الأحباب.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من الخفيف – متسائلًا:

هذه الـــدَّارُ مـــا عســـى أن تكونَـــا فـــاقضِ فيهـــا لهـــا عَليـــكَ دُيونَـــا
كانَ عهدي بها ومـــن كـــانَ فيهـــا أشـــرَقَتْ أوْجُهًـــا ولانـــتْ غُصـــونَا
يـــا ديـــارًا عَهِـــدتُها قبـــلَ هـــذا جنَّـــةً أُزْلِفَـــتْ وحـــورًا وعِينَـــا[2]

جاء الاستفهام في مطلع القصيدة ب(ما) ودخلت على جملة فعلية، فالشـــاعر يتذكر تلك الدار ويقف عليها حزينًا باكيًا، وكان عهده بهذي الديار وبمن كان فيهـــا مختلفًا عن وقت وقوفه عليها، فشبّهها بجنة غصونها ليّنة ووجهها مشرق للحيـــاة، وشبه ساكنيها بالحور العين فهي كاملة في نظره لا يعيبها شيء، واسم الاستفهام قد أوضح هذه المعاني باعتباره يسأل عن شيء غير عاقل، فالشاعر تحدث عن (الدار) وهي غير عاقلة، ووصف الحال التي كانت عليها بأسلوب يفيض من الحنين.

ويقول متسائلًا في قصيدة أخرى [من الرمل]:

مـــا لهـــذي النُّـــوق تَـــنحَطُّ كَـــلالا وتَجـــوبُ البيـــد حِـــلاًّ وارتحـــالا

---

(١) الديوان، ٢٩٠.

(٢) نفسه، ٣١٠.

نَحِلَــتْ حتَّــى انبَــرَتْ أعْظُمُهــا والهــوى يُنْقِــبُ أهليــه نكــالا
كلَّمــا شــامتْ ســناً مــن بــارقٍ قَــذفتْ لوعتهــا دمعــاً مُــذالا[1]

استهلّ الشاعر أبياته باسم الاستفهام (ما) وقد دخلت على شبه جملة، فالشاعر يتساءل عن حالة هذه النوق التي تنحطّ متعَبة وتجــوب الأرض حلّــا وارتحالًــا، ويصف حالها الهزيل الذي تسبب به العشق والهوى، فالهوى عقوبة علــى أهلــه، وهذه النوق كلما نظرت إلى السحاب والبرق هاجت لأحبابها وذرفــت دموعهــا، والشاعر يتعجب من حالة النوق بواسطة الاستفهام ب (ما) والتي يسأل بها عن غير العاقل.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من الرمل – متغزلًا:

ما لها تَطوي فيــافي الأرضِ سَــيْرَا وتَخُــدُّ البِيــدَ قَفْــراً ثــمَّ قَفــرَا
أتُراهــــا ذَكَــــرَتْ أحبابَهــــا فطوى فيها المغارَ الشَّــوقُ قَسْــرا
فلهــذا لَعِــبَ الوَجــدُ بهــا فتــرى أعْيُنَهــا بالــدَّمعِ عَبــرَى[2]

جاء الاستفهام ب (ما) في مُستهل هذه الأبيات، وقد دخلت الأداة على شــبه جملة، فالشاعر يتساءل متعجبًا من سير ناقته التي تطوي فيــافي الأرض مســرعة الخطى فهي تقطع الأرض قفرًا ثم قفرًا، ثم يتساءل مرة أخرى في البيــت الثــاني بالهمزة في (أتُراها)، فالشاعر يتساءل عن سبب سرعة الناقة، وكأن الشــاعر أراد الإثبات بأن شدة شوق الناقة جعلها تسير ذلك السير، فالحب له أثــر واضــح فــي أعينها فهي تسكب الدمع كلما هزها الشوق، فاسم الاستفهام دل على تعجب وحيرة لدى الشاعر.

---

(١) الديوان، ٤٧٧.

(٢) الديوان، ٤٩٥.

٢) مَن:

وهي اسم استفهام يستفهم بها عن العاقل[١]، لكنّه كغيره استعمل مجازًا فخرج إلى معانٍ أُخَر، ووردت أداة الاستفهام (من) في مُستهلّ إحدى عشرة قصيدة تقريبًا في ديوان الشاعر، نذكر بعضًا مما ورد في ديوان الشاعر:

نجد الاستفهام في مطلع قصيدة – هي من الكامل – يقول فيها:

لِمَـــنِ السَّـــوابقُ والجيـــادُ الضُـــمَّرُ تخـــدي ويزجرُهـــا الغـــرامُ فتعثُـــرُ
حفَّـــتْ بهـــا أُمَـــمُ الرِّجـــال كأنّهـــا زمرٌ تساق إلـــى الجنـــان وتُحْشَـــر
يَتَشـــرَّفون بحمـــل ثَـــوبِ نبـــيِّهم فوقَ الرؤوس هو الطرازُ الأخضر[٢]

افتتح الشاعر قصيدته بالاستفهام في قوله (لمن) وسبقت الأداة باللام الجارة، والشاعر في هذه القصيدة يمدح الإمام أبا حنيفة النعمان بن ثابت الكـــوفي، حـــين ورود الستارة النبوية الشريفة إليه من قِبل السلطان محمود خان، والشـــاعر تعمـــد استهلال قصيدته بالاستفهام ليلفت انتباه المتلقي لباقي القصيدة وليثير فضول السامع لمعرفة إجابة السؤال، والشاعر يتساءل عن الخيل السوابق الضمّر لمن، فيصـــفها ويصف ممشاها فهي تسرع وتعثر، ويصف تحلُّق الرجال علـــى الخيـــل فكـــأنهم يسوقون زمرة إلى الجنان ويحشرونها.

واستعان الأخرس بالاستفهام ب (من) ليطلب تعيين العاقل، وذلك في قولـــه [من الوافر]:

ألَـــا مَـــنْ مُبلـــغٌ عنّـــي سَـــلامي رئيسًا في (العـــراق) علـــى النّظـــامِ
تحيـــةَ مخلـــصٍ بـــالوُدّ يُبـــدي صـــــبابةَ ذي فـــــؤاد مُسْـــــتَهامِ
ويُبلغـــهُ علـــى البعـــدِ اشـــتياقًا من الداعي إلى الشّـــهمِ الهمـــامِ[٣]

(١) المعجم الوافي في أدوات النحو، ٣١٨.
(٢) الديوان، ٤٨.
(٣) نفسه، ١٨٥.

وظّف الشاعر اسم الاستفهام في مُستهلّ القصيدة ليتساءل عن سلامه من يبلغه إلى ممدوحه، ويحيّيه تحية مخلص محب له ويبلغه بشوقه إليه لبعده عنه، ويصف ممدوحه ب (الشهم الهمام)، وأراد باسم الاستفهام التعبير عن حيرته فهو يريد من يرسله ليبلغ الممدوح بتحيته واشتياقه.

ونجده يستهل بالاستفهام في قصيدة أخرى – هي من الرمل – فيقول:

مَنْ مُجيري من فؤادٍ كلَّما اتَّقدَ البَرْقُ اليماني اتَّقَدَا
كادَ لولا أدْمُعي تَحرِقُهُ زفرَةُ الوجدِ بما قد وجَدَا
عَرَفَ القلبُ يدَ العينِ بها إنَّ للعينِ على القلبِ يدَا[1]

استهل الأخرس قصيدته باسم الاستفهام (من)، والجملة اسمية، فالشاعر أراد بالسؤال التمني فهو يتمنى من يجيره من عذاب فؤاده، ويصف لوعة فؤاده فلولا دموعه المنسكبة لاحترق فؤاده من شدة الشوق والغرام.

ودخل اسم الاستفهام على شكوى الشاعر ومعاناته من الهوى فكأنه يتمنى من يخلّصه من حنين فؤاده واشتياقه.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من الطويل – متسائلًا:

ألَا مَن لأجْفانٍ أرِقْنَ رِواءِ وحرِّ قلوبٍ يا (هذيمُ) ظِماءِ
صَوادٍ إلى بَرْدِ الثُّغورِ الَّتي بها إذا كانَ دائي كانَ ثمَّ دوائي
وصحْبٍ أحالوا الوصلَ هجرًا تدانيهمُ في صدِّهمْ بجفاءِ[2]

جاء الاستفهام في مطلع القصيدة باستخدام الأداة (من)، التي يُستفهم بها عن العاقل، فالشاعر يتساءل متمنيًا من يرحم أجفانه ويطفئ حر قلبه الظمآن، كما أنه لجأ في البيت الأول إلى النداء ليلفت انتباه المنادى لسؤاله، ويكمل أبياته شاكيًا مستعطفًا من يسمعه، فهو يشتكي ممن بدّلوا الوصل والقرب بهجران وقطيعة، فجاء

(١) الديوان ، ٣٧٩.
(٢) نفسه، ٤١٤.

الاستفهام دالًّا على معاناته وحاجته إلى الوصل من محبوبه، فوصاله يشفيه مما يعانيه.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من الرمل – مستفهمًا:

مَنْ لصَبٍّ في هواكُمْ مُستهامِ دَنِفٍ نَهْبَ وُلُوعٍ وغَرامِ

فعلى خَدّيَ ما تسقي الحيا وعلى جسميَ ثوبٌ من سَقامِ

فسقاكمْ غدقاً من أدمُعي مُستهلُّ القطرِ مُنهلُّ الغمامِ[1]

استهل الشاعر قصيدته بالاستفهام في (مَن لصبٍّ)، فهو يريد بهذا الاستهلال بيان عشقه وهيامه لمحبوبه، فهو يشتكي من العذاب الذي يلاقيه من هجر المحبوب، فدموعه لا تفارق خدّه، والسقم يكسو جسمه، فلجأ للاستفهام ليحثّ محبوبه على وصاله ويبين له أنه عاشق هائم مغرم وقد أرّقه هذا الغرام الألم والسقم.

٣) متى:

وهي أداة استفهام "يُطلب بها تعيين الزمان ماضيًا أو مستقبلًا"[2]، ووردت هذه الأداة في مُستهل خمس قصائد تقريبًا، نذكر بعضًا مما ورد منها في ديوان الشاعر:

نجد الأخرس يستهل قصيدة – هي من الوافر – متسائلًا فيقول:

متى يَشفى بكَ الصَّبُّ العَميدُ ويبلُغُ من دُنُوّكَ ما يُريدُ

شجٍ يُحييه وصلٌ من حَبيبٍ ويقتلُهُ التَجَنُّبُ والصُّدودُ

وما أنْسى لنا ساعاتِ لهوٍ مَضَتْ والعيشُ يومئذٍ حميدُ[3]

تساءل الشاعر باسم الاستفهام (متى) التي يُسأل بها عن زمن محدد، وقد دخلت الأداة على جملة فعلية فعلها مضارع، فجاءت للسؤال عن الزمان المستقبل، إذ يسأل عن وقت شفائه وبلوغه ما يريد من محبوبه فهو عاشق ولهان، كما أن

---

(١) الديوان ، ٤٤٢.

(٢) البلاغة الواضحة، ١٨١.

(٣) الديوان، ١٧٤.

تجنّب المحبوب وصدوده يقتله والوصل يحييه، فالشاعر جعل الاستفهام دالًّا على استبطائه لوصل محبوبه الذي يشفيه ويحييه.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من البسيط – مستفهمًا:

متى أرى هذه الأيامَ مُسْعِفَةً والدَّهْرُ يُنجِزُ وَعدًا غَيرَ مَوعُودِ
والنفس تَقضي بمطلوبٍ لها وَطَرًا يَنوبُ عن كلِّ مَفقودٍ بموجودِ
ألْقى خُطوبَ اللَّيالي وهْي عابسةٌ كما تَصادَمَ جُلمودٌ بجلمودِ(١)

استهل الشاعر أبياته باسم الاستفهام (متى) وبعده فعل مضارع، فكأنه يقول: أي زمان أرى فيه هذه الأيام مسعفة؟ إذ جعل الاستفهام دالًّا على شكواه من الدهر، كما أنه يتمنى تحقيق مطالبه وأمنياته التي ترغب فيها نفسه، فهو يعاني من خطوب الليالي ويصادمها بكل قوة.

ويتساءل في قصيدة أخرى – هي من الطويل – فيقول:

مَتى يَشْتَفي هذا الفؤادُ المتَيَّمُ ويقضي لُباناتِ الهوى فيك مُغْرَمُ
أبيتُ أُداري الوجدَ فيك صبابةً وأسهَرُ ليلي والخَلِيُّونَ نُوَّمُ
أُجيبُ دواعي الشَّوق حيثُ دعونني وإن أكثَرَتْ لومي على الحبِّ لوَّمُ(٢)

جاء اسم الاستفهام (متى) في مستهل القصيدة، وبعده جملة فعلية فعلها مضارع، فالشاعر يتساءل عن زمن شفاء فؤاده المتيّم، وشفاء فؤاده بقضاء لبانات الهوى مع محبوبه، فهو المريض وشفاؤه الوصل وقرب المحبوب، فهذا الحب والهوى تسبب له في العذاب، فهو لا ينام الليل مما يعانيه من ألم الوجد.

فالشاعر استخدم الأداة (متى) التي عادة ما تأتي للاستفسار عن الزمن، ووظفها للشكوى والاستبطاء.

---

(١) الديوان ، ٢٩٥.

(٢) نفسه، ٣٢٢.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من المتقارب – مستفهمًا:

متـــى يَشْـــتَفي كبِـــدٌ مُـــؤلَمُ ويَقْضـــي لُباناتِـــه مُغْـــرَمُ؟
ويَحْظـــى بمطْلبِـــهِ آمِـــلٌ بأَحشـــائِهِ لَوعـــةٌ تُضْـــرَمُ
لقد قَـوَّضَ الرّكـبُ يـومَ الخلـيطِ فأنجَـدَ فـي قلبـيَ المُـتْهِمُ[1]

جاء الاستفهام في مستهل القصيدة باستخدام الأداة (متى) الدالة على زمن، وبعدها فعل مضارع، فالشاعر يتساءل أي وقت تتشافى كبده المتعبة؟ وشفاؤها يكون بقضاء المغرم حاجاته من محبوبه، ويتمنى أن يحظى بمطلبه، ففي أحشاءه لوعة تحرقه.

فالاستهلال ب (متى) جاء للسؤال عن الزمن المستقبل متمنيًا سرعة وصول هذا الوقت ليرتاح من هذا الألم.

ويستهل بالاستفهام في قصيدة أخرى – هي من الطويل – فيقول في مطلعها:

متى تَرَنـي يـا (سَـعْدُ) والشَّـوقُ بما هَيَّجَ التّذكارَ من لاعـجِ الوجـدِ
أَحُثُّ إلـى (نجـدٍ) مَطايـا كأنَّهـا لها قلبُ مَفؤودِ الفؤادِ إلـى (نجـدِ)
سوابحُ يَطـوينَ الفَدافِـدَ بـالخُطى ومُسْرَجَةٍ جُردٍ لَواعـبَ بالأيـدي[2]

جاء اسم الاستفهام (متى) في مطلع هذه الأبيات وبعده فعل مضارع، فالشاعر ينادي صاحبه سعد ويسأله في أي زمان تحصل الرؤية؟ فالشوق مزعجه، ثم ينتقل إلى وصف سير المطايا إلى ديار نجد، والشاعر يسأل بهذه الأداة عن زمن محدد في المستقبل وكأنه يستبطئ ذلك الزمن، أو يشعر بأن الزمن الذي ينتظره طويل جدًا.

---

(١) الديوان، ٥٤٤.

(٢) نفسه، ٥٦٥.

٤) أين وكيف:

جاءت أداة الاستفهام (أين) في مستهل قصيدتين فقط عند الأخرس، وكانت مشتركة مع اسم الاستفهام (كيف) في البيت الشعري الأول، فالشاعر يستهلّ قصيدته مستفهمًا بأداتين، هما: (أين، وكيف)، وذلك في قول الأخرس [من الطويل]:

سُؤالُكِ هذا الربعَ أينَ جَوابُهُ؟ ومَن لا يعي للقولِ كيف خطابُهُ؟
وقفتِ وما يغنيكِ في الدار وقفةٌ سَقى الدارَ غيثٌ مُسْتَهِلٌّ سحابُهُ
غناؤكِ في تلك المنازل ناظرٌ بدمعٍ تَوالى غَربُهُ وانسكابُهُ[١]

استهلّ الشاعر باستفهامين؛ الأول: ب (أين) "ويُطلب بها تعيين المكان"[٢]، والثاني: ب (كيف) "ويُطلب بها تعيين الحال"[٣]، ففي الأولى ينكر الشاعر على محبوبته سؤالها هذه الدار فهو لا يجد مكانًا للإجابة، ثم يتساءل ب (كيف) متعجبًا في أي حالٍ يخاطب من لا يفهم القول.

فالشاعر في هذا البيت أخرج الاستفهام ب (أين، وكيف) عن غرضهما الأساس، وهو الاستفهام الحقيقي، إذ إنه لا يريده، وإنما يريد الإنكار والتعجب لا البحث عن الإجابة.

ويتساءل في قصيدة أخرى – هي من الكامل – فيقول:

انْظُرْ إلى الأَشراف كيفَ تسودُ وإلى أُباةِ الضَّيمِ أينَ تُريدُ
إذ يدَّعي بالملك من هو أهلُهُ والحزمُ يقضي والسيوفُ شهودُ
يومٌ ثوى فيه (ثويني) في الثرى يومٌ ب (سالم) للبريَّةِ عيدُ[٤]

---

(١) الديوان، ١٣٤.

(٢) علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، ٩٥.

(٣) البلاغة الواضحة، ١٨١.

(٤) الديوان، ١٥٨.

جاء الاستفهام في مستهل هذه القصيدة بأداتين هما: (كيف، وأين)، ففي الأولى استفهم ب (كيف) وبعدها فعل مضارع، فهو يأمر المخاطب بالنظر إلى الأشراف كيف يسودون الناس وفي أي حال يحكمونهم، والفعل المضارع للدلالة على أن سيادة الأشراف باقية لم تنقطع، فجاء فعل الأمر وبعده الاستفهام للفت الانتباه.

وفي الثانية استفهم ب (أين) وبعدها فعل مضارع، فالشاعر يكمل جملة الأمر بالنظر إلى الذين يرفضون الضيم أين مكانهم الذي يريدونه فكأنه يطلب من المتلقي تصور مكانهم، فالاستفهام جاء للتأمل ولتعظيم الممدوح.

وافتتح الشاعر قصيدته بأداتي الاستفهام مسبوقتين بفعل أمر ليجعل المتلقي في حالة انتباه وحضور ذهني لكامل القصيدة.

أما أداة الاستفهام (كيف) فوردت في مطلع قصيدة واحدة في ديوان الأخرس دون أن ترتبط ب (أين)، وذلك في قوله [من الطويل]:

إذا كانَ خَصمي حاكمي كيفَ أصْنَعُ ... لمَنْ أشتكي حالي لمَنْ أتَوَجَّعُ

غَرامي غَريمي وهْو لا شَكَّ قاتلي ... وكم ذَلَّ مَن يَهْوى غَرامًا ويَخضعُ

أباحَ دمي بين الوَرى مَن أُحِبُّهُ ... فَقُلْتُ وقلبي بالهوى يَتقطَّعُ[1]

فالشاعر استهل قصيدته مستفهمًا بأكثر من أداة، ففي البيت الأول جاء الاستفهام ب (كيف، ومن) وفي البيت الثاني سأل ب (كم).

أما الأداة (كيف) فجاء بعدها فعل مضارع، فالشاعر يتساءل بحيرة وتعجب إذا كان خصمه حاكمه فكيف يصنع؟ فهو في حيرة في أي حال يصنع.

ثم تساءل ب (من) مسبوقة بلام الجر وبعدها فعل مضارع (أشتكي – أتوجع)، وتكررت الأداة مرتين وهذا التكرار جاء ليبيّن شدة التساؤل والقلق والحيرة التي تحيط بالشاعر، إذ كيف ينفعه أحد وخصمه حاكمه، وإذا كان حاكمه – وهو محبوبه – لم يسمع شكواه فمن الذي سيستمع له ويرحمه.

---

(١) الديوان ، ٥٦٤.

ثم تساءل ب (كم) في البيت الثاني وبعدها فعل ماضٍ، فهو يسأل كم شخص قد ذلّه الهوى والغرام، فهو يثبت بأن غريمه هو الهوى والغرام كما ذلّ من قبله من العشّاق.

وأسهم تنوع أدوات الاستفهام وتتابعها في مطلع القصيدة في تصوير حيرة الشاعر ومعاناته من محبوبه الذي لم يسمع شكواه.

٥) أيّ:

وهي أداة استفهام "يُطلب بها تعيين أحد المتشاركَين في أمر يعمهما"[١]، ويُسأل بها "عن العاقل وغير العاقل، وعن الزمان والمكان والحال والعدد – على حسب ما تضاف إليه – فإن أضيفت إلى زمان أو مكان أو عدد مثلًا أُعطيت حكم متى أو أين أو كم على التوالي، وهكذا ..."[٢].

واستهل الأخرس ثلاث قصائد تقريبًا في ديوانه باسم الاستفهام (أيّ)، نذكرها مرتبة حسب ورودها في الديوان.

نجد الاستفهام في مستهل قصيدة يمدح فيها العلامة أبي الثناء محمود الآلوسي والذوات الحاضرين بمجلسه، وكان قد حضر عنده جملة من أكابر الشعراء والأدباء، فيقول في مطلع قصيدته [الخفيف]:

أيُّ جَمعٍ هذا وأيُّ اتِّفاق وصِحابٍ أماجِدٍ ورفاق
خالَفُوا داعيَ الشِّقاق وشَقُّوا بالتِئامٍ منهمْ عَصِيَّ الشِّقاق
كلّ فردٍ منهم من الفضل كنزٌ ليس يَخشى الإملاقَ في الإنفاق[٣]

جاء الاستفهام ب (أيّ) مكررًا في مطلع الأبيات، فالاستفهام هنا دالّ على التعظيم، والتكرار يدل على قوة المعنى، فالشاعر يعظم هذا الجمع وهذا الاتفاق

(١) البلاغة الواضحة، ١٨١.
(٢) علم المعاني، ٩٥.
(٣) الديوان، ٢٧٢.

الذي اجتمع فيه كبار الشعراء والأدباء في مجلس واحد وهو مجلس الممدوح، ثم يمدح الحضور فهم أكارم وعظماء لم يطيعوا داعي الشّقاق، ويُعَدُّ كلّ فرد منهم كنز من الفضل فهو لا يخشى الإملاق من الإنفاق.

ونجد الاستفهام في قصيدة أخرى – هي من الخفيف – يقول فيها:

أيُّ نـــارٍ بهـــا الجـــوانِحُ تَصْـــلَى وجُفـــونٍ تَصـــوبُ بالـــدَّمع وَبْلَـــا
كلَّمـــا لاحَ بـــارقٌ هـــاجَ وجـــدٌ وجـــرى مَـــدمعٌ لـــه واسْـــتهلَّا
مغرمٌ لا يعي الملامـــةَ فـــي الحـــبِّ ولا يرعـــوي فيَقبـــلُ عـــذلَا[1]

استخدم الشاعر أداة الاستفهام (أيّ) في مستهل قصيدته للسؤال عن غير العاقل (نار)، فلجأ الشاعر للتساؤل لتمييز النار التي تصلاها أضلع صدره، فالاستفهام يعبر عن ألم الشاعر من الغرام، فصدره يتوقد نارًا وجفونه تمطر دمعًا، ويصرّح بأنه مغرم لا يفهم ولا يسمع لمن يلومه في الحب.

والاستفهام جاء مناسبًا لإظهار الألم والحزن الذي يعيشه الشاعر من هذا الغرام.

ويقول في قصيدة أخرى – هي من المتقارب – متسائلًا:

على أيّ وَجـدٍ طَوَيْـتَ الضُّـلوعَا وأجْرَيْـتَ ممَّـا وَجَـدْتَ الـدُّموعَا
ومِـن أيِّ حـالِ الهـوى تَشْـتكي فـؤادًا مَرُوعًـا وشَـوقًا مُريعَـا
تـــذكّرْتُ أيامنـــا بـــالحمى وقد زانتِ الغيـدُ تلـكَ الربوعَـا[2]

جاء اسم الاستفهام (أي) في مطلع هذه الأبيات مسبوقا بحرف جر (على)، فالشاعر يخاطب نفسه ويسألها عن الحب الذي طوى عليه الضلوع، وهو يريد بذلك التقرير، فهذا الحب تسبب له بحزن أجرى دموعه.

وتساءل في البيت الثاني أيضًا ب (أي) مسبوقة بحرف جر (من)، فهو يواصل تساؤلاته التي يريد بها بث شكواه من هذا الحب، ويحاول تمييز حال الهوى الذي يشتكي منه.

---

(١) الديوان، ٢٨٢.

(٢) نفسه، ٦٤١.

الفصل الثاني: الاستهلال بالاستفهام وعلاقته بموضوعات القصيدة

المبحث الأول: علاقة الاستفهام بالفكرة الأولى

توسع النقّاد المحدَثون في دلالة مطلع القصيدة، ففي القدم كانت دلالته مقتصرة – غالبًا – على البيت الأول من القصيدة، وسبب ذلك التوسع هو أن "البيت الأول ليس في العادة إلا جزءًا من عنصر، والحكم على أي جزء دون مراعاة للكل المكمل له حكم مبتور ناقص، فإذا كان بدء القصيدة غزلاً، فإن البيت الأول ليس إلا جزءًا من هذا الغزل، ولا يمكن أن نتفهم موقف الشاعر ولا مشاعره في هذا الغزل مكتملة إلا إذا راعينا بقية حديثه في الغزل، بل إن التركيز على البيت الأول وإغفال النظر إلى ما يليه قد يفسد المعنى أو يعكسه"(١).

واعتنى الشعراء بمطالع قصائدهم لعلمهم بأهميتها لدى المتلقي، فلكل إنسان شواغله، والشاعر المبدع من يستطيع أن يجذب انتباه المتلقي ويخرجه مما يشغله عن القصيدة. وهذا الأسلوب ذو حدّين؛ إذ لو تبين للمتلقي أن الشاعر لم يحسن في مطلع قصيدته فإنه قد يصاب بخيبة أمل. وجاء في العمدة: "إنّ الشعر قُفلٌ أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوِّد ابتداءَ شعره؛ فإنه أول ما يَقرعُ السمع، وبه يستدلّ على ما عنده من أول وَهْلة"(٢).

واستهل الأخرس قصائده بمقدمات جميلة ورائعة، وأضاف لها الاستفهام حسن المطلع، وقد سار على سنن المقدمات الجاهلية، فتارة يبدأ قصيدته بالغزل، وتارة بالوقوف على الأطلال، وتارة أخرى يصف الخمر، فتأتي مناسبة للغرض الأساسِ للقصيدة، ومن ذلك قوله [من الطويل]:

أتذكرُ أطلالًا تعفَّت وأرسُمَا ب (ذات الغضا) في (الجَزْعِ) من أيْمَنِ

---

(١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ١٥.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، ط٥، ١٩٨١م، ج١، ٢١٨.

منازلَ أحبابٍ بهـا نَـزَلَ الهـوى فلم يُبْقِ إلا مدنَفَ القلـب مُغرَمَـا[1]

استهل الشاعر قصيدته مستفهما بالهمزة، وجاءت في سياق الوقـوف علـى الأطلال، فالشاعر افتتح قصيدته بمقدمة طللية وأطال النفس فيها، فجاءت الفكـرة الأولى في أربعة وعشرين بيتًا بدأها بخطاب وجهه لنفسه سائلًا إياها هل تذكر تلك الأطلال؟ فهي منازل أحبابه، فوقف عليها وأرسل فيهـا الـدمع فـردًا وتوءمًـا، واستوقف خليليه لكي يعلما من لوعته ما يجهلهما، ثم يصف لمع البروق التي أبكته لمّا ضربت ديار محبوبته، كما أن البرق في ظلام الليل يذكره بثغر سُعدى توهّمًا، ويتذكر عيشته في تلك الديار، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض الأساسِ وهو المدح.

فالشاعر لم يُرد جوابًا لسؤاله بل أراد به لفت الانتباه وتشويق المتلقي لبقيـة القصيدة.

وإذا انتقلنا إلى قصيدة أخرى نجد الاستفهام مناسبًا للفكرة الأولى، وذلك فـي قوله [من الكامل]:

أتُـراكَ تعـرفُ عِلَّتـي وشِـفائي؟ يا داءَ قلبي فـي الهـوى ودوائـي

ما رقَّ قلبُـكَ لـي كـأنَّ شـكايتي كانـت لمَسْـمَعِ صـخرةٍ صـمّاءِ

افتتح الشاعر قصيدته متسائلًا بالهمزة، في مطلع غزلي، فهو يخاطب محبوبته التي عذّبته ويوجه إليها سؤالًا محملًا بعتاب لها واستنكار لجفوة قلبهـا وتجاهلهـا لمشتاق تعذب في هواها.

ثم يتساءل بعدها بأكثر من أداة في قوله:

هل يعلـم الواشـون أن صـبابتي كانـت بلحـظ مهًـا وجيـدِ ظبـاءِ

وتجرُّعي مَضضَ الملام مِـن التـي حلّت عُقيب (الجزع) في (الجرعاءِ)

لم يحسُنِ العـيشُ الـذي شـاهدته مـن بعـد ذات الطلعـة الحسـناءِ

فمتى أبلُّ صـدىً بمرشـف شـادنٍ نقض العهـود ولا وفـى لوفـائي

(١) الديوان، ٢٣.

وجفا وملّ أخا الهوى من بعد ما كنا عقيدَيْ ألفةٍ وإخاءِ
ونأى بركب الظاعنين عشية أين الركابُ وأينَ ذاك النائي
أصبحتُ لمَّا ماسَ عدلُ قوامهِ أشكو طِعان الصعدة السمراءِ
وأجيبُ سائلَ مهجتي عن دائها دائي هواك فلا بُليت بدائي[1]

تساءل في هذه الأبيات ب (هل، ومتى، وأين) واستخدم هذه الأدوات ليعبّر عمّا يخالج نفسه من شكوى وحرقة، فهو يتساءل منكرًا على الواشين عذلهم لشدّة عشقه، ويصف معاناته من الملام الذي تسببت فيه محبوبته، ويصف عيشه الذي فارقه الحسن بعدما ابتعد عنه محبوبه، ويتساءل مرة أخرى مستبطئًا الوقت الذي سوف يبلّ عطشه من محبوبه الذي شبهه بالشادن وهو صغير الظبية، كما أنه يصف ما لاقاه من محبوبه الذي نقض عهوده وجفاه وملّ عشرته وابتعد راكبًا مع الراحلين عشية، ويتساءل متحسرًا ب (أين) فهو يسأل عن مكان تلك الركاب التي سار معها محبوبه، ويتساءل عن مكان ذلك الراحل بعيدًا.

ثم يجيب محبوبه الذي سأله عن داء مهجته بقوله: (دائي هواك فلا بُليت بدائي). وأكمل أبياته شاكيًا باكيًا من الهوى، ثم انتقل بعد ذلك إلى الغرض الأساس من هذه الأبيات وهو مدح العلامة أبي الثناء الآلوسي وتهنئته بالعيد.

ونجده في قصيدة أخرى يمدح فيها السيد عبد الغني آل جميل فيقول في مطلعها [الكامل]:

عادَ المتيَّمَ في غرامك داؤهُ أهُوَ السليمُ تَعودُهُ آناؤهُ
فتَأجَّجَتْ زفراتُهُ وتلهَّبَتْ جمراتهُ وتوقّدتْ رمضاؤُه
حسبُ المتيَّم وَجْدُهُ وغرامهُ وكفاهُ ما فعلت به بُرحاؤُه[2]

(١) الديوان، ٣٥.
(٢) نفسه ، ٥٠.

استفهم الشاعر في هذا المطلع بحرف الاستفهام (الهمزة)، وجاءت في مطلع غزلي، وبعد سبعة وعشرين بيتًا من الغزل أخذ يشتكي الدهر، ومن ثم انتقل إلى غرضه الأساس وهو المدح.

فالشاعر تناول في الفكرة الأولى النسيب، وجاء بالاستفهام للتأكيد على معاناته من داء الغرام، ثم يصف حالته التي يعبر عنها بأسلوب إخباري، ويطلب من الحمائم أن تغرد فالمشتاق تهيّضه تلك الأغاني، ويبكي من ذلك العشق والهوى، ويعاتب قلبه لأنه لم يسمع نصيحة من جرب الهوى وذاق مرارته، فهو ما زال يكتحل الليل بهجرهم أرقا. ويتقلب في هذا المطلع شاكيًا باكيًا لوعة الحب والغرام، فكأن الاستفهام بوابة أراد الشاعر أن ينفجر من خلالها واصفًا معاناته من محبوبه، وقد أطال النفس كعادته في هذا المطلع، كما أن الشاعر هنا لم يأت بجواب لسؤاله، بل جعل إجابته مفتوحة يحددها المتلقي.

ونجده في قصيدة أخرى يمدح فيها أبا الثناء الآلوسي فيقول [من الخفيف]:

هل تَركتُمْ غيرَ الجَوى لفؤادي ... أو كَحَلْتُمْ عيني بغيرِ السُّهادِ
قد بَعُدْتُمْ عن أعيُنٍ فهْي غَرْقَى ... بدموعي ولي فؤادٌ صادِي
ثمَّ وكّلتمُ السُّهادَ عليها ... يمنعُ العينَ عن لذيذِ الرُّقادِ
مَنْ مُجيري منَ الأحبَّةِ يجفو ... نَ وتعدو منهم عَليَّ العَوادِي
عَلموا أنَّني عليلٌ ومَنْ لي ... أنْ أرى طَيفهُم مِن العُوّادِ
نزلوا (وادي الغضا) فكأنّ الدْ ... دَمعَ منّي سيول ذاك الوادي[1]

تساءل الشاعر في مطلع هذه الأبيات بحرف (هل)، وجاء الاستفهام في مطلع غزلي، وبعد أربعة أبيات من الغزل انتقل لوصف الطلل والديار وذلك في تسعة عشر بيتًا، ثم انتقل إلى المدح.

(١) الديوان، ٦٣.

فالشاعر تناول في الفكرة الأولى الصدود والهجران وأثره في فؤاده، فهو يعاني الأرق وانعدام النوم ليلًا لشدة ما يجده من العشق والحزن، ويصف حال عينيه التي هي غرقى من الدموع كما أنها محرومة من لذيذ النوم، فهو يشتكي جفوة المحبوب ويريد من يجيره منها، فالمحبوب تركه يعاني مع علمه بعلته وقدرته على علاجه، كما أنه يصف منازلهم ورحلة أضعانهم يوم فارقوه، ويشوقه لمع البروق ويذكّره بديار الأحباب، ويصف تلك الديار وما فيها من رسم وزهر وورد وحيوانات متعددة كالغزلان وغيرها، ويستمر على ذلك إلى أن ينتقل إلى الغرض الرئيسِ للقصيدة وهو المدح.

والاستفهام جاء في مطلع القصيدة لجذب المتلقي إلى محتوى القصيدة.

ونجد الاستفهام في مطلع قصيدة أخرى يمدح الأخرس فيها السيد عبد الرحمن المحض القادري الكيلاني، نقيب أشراف بغداد، فيقول في مطلعها [من الخفيف]:

هَل عَرَفْتَ الديارَ من آلِ نُعمَى ومَحلًّا عَفا لِبَيْنٍ ألمَّا

تُنكِرُ العينُ بعد معرفةٍ من ها طلولًا كأنَّما كنَّ رَقْمَا

فَسَقى الأرسُمَ الدَّوارسَ دمعٌ لم يغادرْ من أرسُمِ الدارِ رَسمَا

قد ذكرنا بها العصور الخوالي عَهدَ هندٍ ودار سُعدى وسلمى(١)

استهل الشاعر مطلع قصيدته مستفهما ب(هل)، وجاء مطلع القصيدة طللي، فالشاعر يتساءل عن الديار هل عرفها؟ فعينه تنكر معرفتها بعد أن تغيرت ملامحها وتفرق من كان فيها واختفى أثرهم، ثم يتذكر تلك العصور الخوالي وتلك المنازل، ثم ينتقل بعد المقدمة الطللية إلى الغزل وبعده المديح. فالاستفهام في مطلع القصيدة جاء مناسبًا للحيرة والحنين التي يعيشها الشاعر، وهو يريد بذلك التساؤل شد انتباه المتلقي وكسب إعجابه.

(١) الديوان، ٩٤.

ويقول في قصيدة أخرى مادحًا الشيخ سالم بن ثويني بن سعيد بن سلطان، أمير عمان ومسقط [من الكامل]:

انْظُرْ إلى الأَشْراف كيفَ تسودُ ... وإلى أُباةِ الضَّيمِ أينَ تُريدُ

إذ يدَّعي بالملك من هو أهلُهُ ... والحزمُ يقضي والسيوفُ شهودُ

يومٌ ثوى فيه (ثويني) في الثرى ... يومٌ ب (سالم) للبريَّةِ عيدُ

ما للذي عبد الصخور من الَّذي ... عَبد الإلهَ ودينُه التوحيدُ

قل للذي ذمَّ الإمام بشِعرِهِ ... قد فاتك المطلوبُ والمقصودُ

ولقد عميتَ عن الهُدى فيمن لهُ ... نظرٌ بغايات الأُمور حديدُ

ويقول بعد ذلك بعدّة أبيات:

مَن لام (سالم) في (أبيه) فلومُهُ ... حُمْقٌ لَعمري ما عليه مزيدُ

ما عَقَّ والِدَه ولا صدق الَّذي ... نَسَبَ العقوقَ إليه وهْو جَحودُ

وافى (ثويني) في الفراشِ حِمامُهُ ... وأتى عليه يومُه الموعودُ

هذا قضاء اللهِ جلَّ جلالُهُ ... لا والدٌ يبقى ولا مولودُ

رأي رأى فيه الإِصابةَ سالمٌ ... بالله أُقسِمُ إنَّه لسديدُ[1]

جاء الاستفهام في مطلع هذه القصيدة بأداتين، هما: (كيف، وأين)، واختلف مطلع القصيدة هنا عن السابق، فالشاعر دخل مباشرة إلى غرض المدح، وممدوحه سالم بن ثويني كان في صباه يُعِين أباه في شؤون الحكم وتدبير الأمور، ثم طمع بالملك فاغتال أباه في ميناء (صحار) سنة ١٢٨٢ه = ١٨٦٥م وانفرد بالحكم، ثم جمع أمراء القبائل في مسقط وأخبرهم بأنه قتل أباه لظلمه. فرضوا بعمله وبايعوه، فبقي بالحكم سنتين ثم ثاروا عليه، فاستنجد بالبرتغاليين في الخليج العربي، وكانت لهم سفن حربية هناك فأعانوه أول أمره ثم خذلوه. فاضطر إلى الهرب من عمان

(١) الديوان، ١٥٨، ١٥٩.

إلى الهند سنة ١٢٨٥ه وتولى الحكم من بعده عمه تركي بن سعيد، وتوفي سالم في الهند سنة ١٢٩٠ه[١].

فالشاعر بدأ القصيدة بمدح الأمير، ويهنئه بتوليه حكم الدولة بعدما قتل والده، ويهاجم من يذم الأمير بشعره، ويرد عليه بأن الأمير بعيد مقامه عن الذم والانتقاص، ويهاجم من يلوم سالم في قتل أبيه ويصفه بالحمق، ويبرر الشاعر لسالم فعلته بأن والده قد مات في فراشه وهذا قضاء الله – جل جلاله – في عباده؛ فكل نفس سيأتيها الموت، ثم يعود ويؤيد سالمًا على رأيه ويقسم بأن رأيه سديد. وقد أطال في قصيدته فتارة يمدح سالمًا ويرفع من قدره، وتارة يذم من يلومه، ويرد على من سبه من الشعراء والناس. وربما كان سبب هذا المدح والدفاع طلب الشاعر للعطاء، وإن يكن السبب فهو لا يشفع للشاعر هذه السقطة في شعره، فمدحه لقاتل والده طمعًا في الحكم مع أنه لم يحكم سوى سنتين فقط يُعدّ سقطة يؤاخذ الشاعر عليها، وهو بذلك نقل الشعر من قمته إلى الحضيض.

والاستفهام في مطلع القصيدة جاء للمدح، وهو متصل بكامل القصيدة التي هي مدح للأمير ودفاع عنه، وقد وصفه بالشريف ورافض الضيم في المطلع، فهو في نظر الأخرس شريف لفعلته، ورافض للضيم لعلوّ همته.

وافتتح قصيدة أخرى بالاستفهام مادحًا السيد محمد سعيد الرفاعي البصري، نقيب الأشراف في البصرة، فيقول [من الوافر]:

متى يَشفى بكَ الصَّبُّ العَميدُ ... ويبلُغُ من دُنُوّكَ ما يُريدُ
شجٍ يُحييه وصلٌ من حَبيبٍ ... ويقتلُهُ التَجَنُّبُ والصُّدودُ
وما أنْسى لنا ساعاتِ لهوٍ ... مَضَتْ والعيشُ يومئذٍ حميدُ
ونحن مِن المَسرَّةِ في رياضٍ ... تُحاكُ من الرَّبيع لها بُرودُ

(١) نفسه، ١٥٨. وانظر: الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ج٢، ٧١، ٨٤، ١٠٢.

وبنـــت الكـــرْمِ قـــد طلعـــتْ علينـــا يكلّـــلُ تاجَهـــا الـــدر الثمـــينُ[1]

جاء الاستفهام ب (متى) في المطلع، والقصيدة مطلعها غزلي، ثم ينتقل إلـــى المدح بعد أن تغزّل في عشرين بيتًا.

فبدأ قصيدته متسائلًا عن الزمن الذي يشفى فيه العاشق ويبلـــغ مـــن قـــرب محبوبه ما يريد، فهو مغرم هائم يحييه وصل المحبوب ويقتله الصدود، ثم يتـــذكر ساعاته الماضية التي عاشها في زمانه الفائت فهي ساعات فرح وسرور لا تُنسى، ثم يذكر الشراب المعتَّق الذي تطوف به مرأة حسناء، ثم يصف غناء الحمام علـــى الغصون فهو يذكره بغرامه، ويعود ليصف لياليه اللاهية ويجدد ذكرهـــا، ويخـــتم مطلعه بنداء أحبته وتذكيرهم بأنه قد طال عليه البعد والهجر، وحال بينه وبينهم بيد فبيد، ثم يتساءل بسؤال يحمل الأسى والحسرة هل من رجوع لزمن الصبا؟ ومتـــى يعود عهد الشباب؟

فالاستفهام في مطلع القصيدة أراد به الشاعر تنبيه المتلقي بحاجتـــه لقـــرب ووصل محبوبه، وكانت الفكرة الأولى مكملة للاستفهام وجاءت للتعبير عما يتمنـــى حدوثه ورجوعه.

ونجده يوجه قصيدة للشيخ صالح بن عيسى السعدون حين قدم إلـــى بغـــداد، وأُسندت إليه المشيخة، فيقول مادحًا [من الطويل]:

نَعَمْ ما لهذا الأمر غيـــرُك (صـــالحُ) وإنْ قيل هلْ من صالحٍ قيل (صالحُ)
سَعَيْتَ إلى نيل العُـــلا غيـــرَ كـــادحٍ وغَيرُكَ يَسعى للعُـــلا وهْـــو كـــادحُ
وتاجرتَ للمجد الَّـــذي أنـــتَ أهلُـــهُ وأنْـــتَ بهاتيـــكَ التِّجـــارةِ رابـــحُ
فَهُنِّيتَ من بـــين الشـــيوخ بخِلْعَـــةٍ شذاها بأقطـــار (العـــراقين) فـــائحُ
مطارُ فخار طار في الأرض صـــيتُه فأنْتَ مقيمٌ وهو في الأرض سائحُ[2]

(١) الديوان، ١٧٤.
(٢) نفسه، ١٧٩.

جاء الاستفهام ب(هل) في مطلع القصيدة، وغرضه من القصيدة مدح صالح بن عيسى، فبدأ بالمدح مباشرة دون إطالة بنسيب أو وقوف على طلل، فالشاعر يؤكد بأن ممدوحه الشخص المناسب للمشيخة، ثم إذا تساءل أحد وقال: هل من شخص صالح؟ أجابه الناس ب: نعم ذاك صالح. فجواب الاستفهام جاء بعده مباشرة.

وتصب الأبيات اللاحقة للبيت الأول في مدائح الشيخ صالح وتهنئته وإثبات صفاته الطيبة.

ومن الملاحظ أن الشاعر جعل الاستفهام على لسان المجهول (وإن قيل)، ثم يجيب بلسان المجهول أيضًا (قيل: صالح)، فالشاعر تعمّد هذا الأسلوب ليبين أن الناس متفقون على صلاح صالح للمشيخة.

وافتتح قصيدة أخرى بالاستفهام، فيقول [من البسيط]:

هل تَعلمون – بَني الآداب – لا كَتَبَتْ أيديكُمُ غَيْرَ ذمِّ البُخلِ في الصُحُفِ
أنِّي مَدَحْتُ بخيلًا لستُ أذكُرُهُ لا خِيفةً منه بل حِرصًا على الشَّرفِ
وليسَ يَخفى عليكمْ مَن عَنَيتُ بهِ ومَن تخلَّقَ بالأرذالِ غيرُ خَفِي
فراحَ يُصغي إلى ما ليس يعرفُهُ ولا يُميّزُ بين الدُّرِّ والصَّدفِ
شِعري وبَعري سَواءٌ عند فِطنتِهِ والشِّعر والبعرُ شيءٌ غيرُ مؤتلفِ
قد كان جائزتي الحِرمان وا أسفي ورُحتُ في خَيبة الراجي فوا لهَفي
فقيل لي إنَّه ثورٌ فقلت لهم بالشكلِ والفهمِ لا بالجود والسَّرفِ
واللهِ لو أنشدوا ثورًا على علفٍ شعري لجادَ عليَّ الثَّورُ بالعلفِ[1]

بدأ الشاعر قصيدته بحرف الاستفهام (هل)، وهو يوجه خطابه لأهل الأدب، وسياق القصيدة هجاء لأحد البخلاء. والقصيدة كاملة عددها ثماني أبيات، ومطلعها استفهام يخاطب به الأدباء فهو يريد أن يلفت انتباههم لكي لا يقعوا فيما وقع فيه

(١) الديوان، ٦٥٣، ٦٥٤.

فيمدحون شخصًا بخيلًا لا يعطيهم شيئًا، وينصحهم بألّا تكتب أيديهم غير ذمّ البخل في صحفهم. ثم يبدأ في إخبار الأدباء والشعراء بما حصل له من هذا البخيل الذي لم يُسمّه في القصيدة؛ ليس خوفًا منه بل حرصًا منه على الشرف، كما أن هذا المهجو معروف لديهم فصاحب الأوصاف الرذيلة مفضوح. وهذا المهجو لا يعرف جيد الشعر من رديئة فهو لا يميز بين الدر والصدف، ولا بين الشعر والبعر، ويختم أبياته بتفضيل الثور على البخيل؛ لأن الثور قد يجود بطعامه مكافأة للشاعر أما البخيل فعكس ذلك.

والأخرس في هجائه لم يعمد إلى السباب والفاحش من القول، بل صورّ حالة البخيل بواقعية دون تكلف. وربما كان سبب عدم معرفة البخيل بجيد الشعر ورديئه أنه أعجمي لا يعرف الشعر الفصيح.

والاستفهام في المطلع أراد به الشاعر لفت انتباه المتلقي إلى معاناته من البخل والبخلاء ونصح الأدباء بذم البخل في الصحف.

المبحث الثاني: علاقة الاستفهام بخاتمة القصيدة

للخاتمة أهمية لا تقل عن مطلع القصيدة، وقد اعتنى الشعراء والنقاد بها لعلمهم بأهميتها لدى المتلقي، ويختلف الشعراء في آلية الخاتمة وتحديدها، بل تختلف الخاتمة من قصيدة إلى أخرى عند الشاعر نفسه، فعند محاولة تحديد خاتمة قصيدة ما يجب قراءة القصيدة وتخمين الخاتمة تخميناً استقرائيًّا فقد تكون في بيت أو بيتين أو أكثر، ولذلك أطلق عليها بعض النقاد القدامى لفظة (الانتهاء)، فالخطيب القزويني ممن أسماها بهذا اللفظ؛ ويعلّل لذلك بقوله: "أنه آخر ما ينتهي إلى السمع فيعيه وأنه آخر شيء يرتسم في النفس ويقع فيها، فإن تكن هذه الخاتمة وهذا الانتهاء مختاراً فإنه بلا شكٍّ سيَجبر كل الذي يقع فيما قبله من القصورِ وعدم بلوغ الغاية والمرام، وأنه إن يكن غير مختار فإنه سيكون بخلاف ذلك، وربما تعدى ذلك إلى أنه سوف يمحو ويُنسي ما وقعَ قبله من محاسن القول واللفظ والأسلوب"(١).

وقريب من ذلك قول ابن رشيق في خاتمة الكلام، فالخاتمة الجيدة "أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن، وان قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–"(٢).

إذن تُعَد الخاتمة ذات أهمية كبيرة لتعلقها بالحكم على القصيدة بالجودة أو الرداءة، كما أنها تبين قدرة الشاعر على تلخيص أفكاره ومواقفه وقناعاته بمساحة محدودة وأبيات قليلة. وقد أجاد الأخرس في ختم أغلب قصائده على اختلاف أغراضها وتنوعها بين مدح وهجاء وغزل وغيرها، والذي يعنينا من قصائده ما استهلّها بالاستفهام.

فنجده يستهل قصيدة بالاستفهام، ويكون بين المطلع والخاتمة تماسك نصّي، وذلك في قوله [من الوافر]:

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ٣٦٥.

(٢) العمدة، ٢١٧.

أمِـنْ بعـدِ الهُمـامِ القَـرْمِ (وادي) تصـوبُ غمامـةٌ ويَسـيلُ وادِي
وهل يسقي الغمـامُ (بنـي زبيـدٍ) فتنقـعُ غلّـةٌ ويبـلُّ صـادِي
لِتَصْـدَى بعـده الـورّادُ طـرًّا وأين الماءُ مِـن غُلَـلِ الصَّـوادِي
شـديد البـأسِ أروعَ مستشـيطٌ يـردُّ شـكيمةَ الكُـربِ الشـدادِ
فكيـف يقـودهُ صَـرفُ المنايـا وكنـتُ عهدتُـهُ صـعب القيـادِ[1]

افتتح الأخرس قصيدته متسائلًا ب (الهمزة)، وغرضه من القصـيدة رثـاء الشيخ وادي بك بن الشيخ شفلح، وهو شيخ مشايخ زبيد، فيتسائل مستنكرًا أمن بعد رحيل السيد عظيم الهمة وادي بك تمطر سحابة ويسيل وادي؟ ويكرر سؤاله فـي البيت الثاني ب (هل)، فهو يتسائل: هل يسقي الغمام أبناء قبيلة زبيد بعـد رحيـل شيخهم؟ وينتقل بعد ذلك إلى ذكر صفاته التي تدل على قوته ثم يتسـائل متعجبًـا ومستنكرًا: كيف يقوده الموت وهو صعب القيادة، ويعود ليبين بعض صفاته فهـو قريب ممن يرتجي منه العون لكن الموت أبعده عنهم، فالشاعر في المطلع يمـدح الشيخ وادي بك ويبكيه في وقت واحد، ويستمر على هذه الطريقة راثيًا وموقنًا أنه ليس لقضاء الله ردّ، وأن أمره لا بد أن يجري في العباد، فهو كذلك يعدد صـفات المرثي الحسنة ويذكر مناقبه، وشجاعته وقوته وكرمه، إلى أن يصـل إلـى ذروة المعنى في خاتمة القصيدة، التي هي عصارة ما أراد توصيله إلى المرثي متمنيًا أنه يسمع ما يقول، فيقول:

وقـد قلـت الرثـاءَ وثَـمَّ قـولٌ يثيـرُ لظـى حشـاً ذات اتقـادِ
فليتكَ كنـتَ تسـمعُ فيـك قـولي وما أُبديـه مِـن محـض الـودادِ
تُشَـقُّ لهـا قلـوب لا جيـوبٌ ولـو كانـت أفـظّ مِـن الجمـادِ
قـوافٍ تقطـرُ العَبَـراتُ منهـا وتستسـقى لـك الـديم الغـوادي

(١) الديوان، ١٤١.

إذا ناحـــت عليـــك بكـــلّ نـــادٍ بكينـــا المكرمـــاتِ بكـــلِّ نـــادِ[١]

هنا في خاتمة القصيدة يوظف الشاعر قدرته في الرثاء على مخاطبة المرثي وتمنيه أن يسمع لأبياته التي تشقق القلوب ولو كانت أقوى من الجماد، فقوافيه تقطر العبرات منها وتستسقي له السحاب الممطر، وإذا ناحت عليه القصائد في كل نـاد فهم يكونون معها.

فخاتمة القصيدة جاءت متصلة بمطلعها، والاستفهام في المطلع للدلالة علـى حزن الشاعر وبكائه على الميت، وهذا ما ختم به قصيدته.

ونجده في قصيدة أخرى يرثي ويؤرخ لوفاة الشاعر عبـد البـاقي العمـري الموصلي، وهو شيخ الأدباء في عصره، فيقول في مطلعها [من الكامل]:

مـا لـي أودِّعُ كـلَّ يـومٍ صـاحبًا إذ لا تلاقِـيَ بعْـدَ طـولِ فِـراق
وأُصارِمُ الأحبـابَ لا عـن جَفْـوَةٍ منِّـي ولا متعَرِّضًـا لشِـقاق
فـارقتُهُمْ ومـدامعي مُنهلَّـةٌ وجـوانِحي للبَـيْنِ فـي إحـراق
وتركتُهمْ ورجعـتُ عـنهم صـابراً حتّـى كـأنِّي لسـتُ بالمشـتاق
أغمَدْتُهمْ في بطنِ منخفض الثـرى بِيضـاً كأمثـال السُّـيوف رقـاق
ولقد سئمتُ العـيش بعـد وفـاتهمْ وقطَعتُ من طمعي بهـم أعلاقـي[٢]

استهل الشاعر قصيدته مستفهمًا ب (ما)، وغرض القصيدة الرثاء، فالشـاعر يتسائل في المطلع متعجبًا من وداعه كل يوم لأحد أصحابه وداعًا لا تلاقي بعـده، وهذا الفراق لا لجفوة من الشاعر أو خصومه بينه وبينهم، بل كان سـبب الفـراق وفاتهم، فيصف حاله بعد فراقهم فهو تارة يبكي علـيهم متألمًـا، فمدامعـه منهلـة وأضلاعه تحترق من الفراق، وتارة يصبر عنهم حتى كأنه غير مشتاق لهم، فهـو يعاني من تشتتٍ أصابه، فمشاعره متضاربة لقوة الألم والحسرة على فقد صـاحبه،

(١) الديوان، ١٤٣.
(٢) نفسه، ٢٩٠.

كما أنه سئم العيش بعد وفاتهم؛ فلا طعم للحياة عنده بعدهم، ويتعجب كيف تطيب له الحياة وهو لا يرى أصحابه وأحبابه أمامه بل يراهم يتساقطون من الموت كتساقط الأوراق.

ثم يذكر مناقب صاحبه عبد الباقي إلى أن يصل خاتمة القصيدة، ومناقبه لا حصر لها ولا يمكن نكرانها فهو من أذكى العالمين وأجلّهم فضلًا، وفيه مكارم الأخلاق مجتمعة، كما أنه تميز بالحكمة والأدب. ثم يقول في ختام قصيدته مؤرخًا وفاة عبد الباقي:

فسقاك صوبَ المزنِ كلّ عشيَّةٍ متتابع الإرعاد والإبراق
أفنَيت في هذا المصاب تصبُّري حزناً وما أنا إذ مضيت بباق
لا بدَّ من شربي كؤوس منيَّةٍ طافت عليك بها أكفُّ السَّاقي
رزءٌ أصيبَ به العراق فأرِّخوا (رُزِءَ العراقُ بموتِ عبد الباقي)

فبعد أن انتهى من تعداد فضائل المرثي ومناقبه، انتقل إلى الدعاء له، ويستسقي المطر ليمطر على قبره كل عشية، وبعد ذلك يلجأ الأخرس في الخاتمة إلى بيان طبيعة الحياة، فكل إنسان سيلقى حتفه لا محالة، معلنًا في هذه الخاتمة أن ما أصاب صاحبه سيصيبه، ويُخفي وراء ذلك حسًّا متقدًا بالوجع والأسى لفراق صاحبه، وفي البيت الأخير يؤرخ الشاعر وفاة صاحبه، ويبين أن هذه المصيبة لم تقع عليه وحده، بل وقعت على العراق عامة، فالمتوفى شيخ الأدباء في ذلك العصر.

واستخدم الشاعر في مطلع القصيدة أداة الاستفهام التي أراد بها التعجب من حال الدنيا فهي لا تُبقي أحد، كما أن الاستفهام هنا ليس لطلب الإجابة، وإنما خرج لغرض إخبار النفس عمّا حلّ فيها من فقد وحزن عميق، والخاتمة تتصل بالاستفهام في أنها تدل على فقده لصاحبه عبد الباقي، إذ لا تلاقي بعد ذلك الفراق.

---

(١) **الديوان**، ٢٩١.

وفي موضع آخر نجد للاستفهام في المطلع علاقة بخاتمة القصيدة، وذلك في قوله [من الوافر]:

أتُنْكِرُ مِنكَ ما تَطوي الضُّلوعُ وقد شَهِدَتْ عليكَ بهِ الدُّموعُ
ولولا أنَّ قَلْبَكَ مُسْتهامٌ لمَا أودَى بك البرْقُ اللَّموعُ
ولا هاجَتْ شجونُكَ هاتفاتٌ تُكَتِّمُ ما تكابدُ أو تذيعُ
تشوّقُك الرُّبوعُ وكلُّ صبٍّ تُشوّقُه المنازلُ والرُّبوعُ
ليالٍ بالتواصلِ ماضياتٌ بحيثُ الشملُ مُلْتَئِمٌ جميعُ
وأقمارٌ غَرُبْنَ فَلَيْتَ شعري ألَا بعد الغروب لها طلوعُ
أمرْتُ القلبَ أنْ يسلو هواها على مضضٍ ولكنْ لا يطيعُ
وما أشكو الهوى لو أنَّ قلبي تَحَمَّلَ بالهوى ما يستطيعُ[1]

جاء الاستفهام في مستهل هذه القصيدة ب (الهمزة)، وغرضه من القصيدة الغزل، فكان مطلعها شكوى من الهوى وكذلك الخاتمة، فهو يتساءل مفتتحًا القصيدة بسؤال إنكاري، وهو يخاطب نفسه ويلومها على إنكارها لما تطوي الضلوع من وجد وشوق فدموعه فاضحة، ثم يُثبت لنفسه أن قلبه شديد الحب والوله؛ فهو كلما رأى البرق يلمع في السماء هاجت مشاعره وصاحت معلنة ما تكابد من الهوى، ويسلي نفسه عندما تشوقه المنازل والديار بأن كل عاشق هائم تشوقه تلك المنازل الخالية؛ فهو ليس وحده الذي يعيش تلك المشاعر الحزينة، ثم يتذكر الليالي السعيدة الماضية التي كانت في تواصل ولمّ شمل مع محبوبه.

وفي خاتمة القصيدة يبين أنه قد أمر قلبه بهجر هواها ونسيانه على مضض، ولكنه لم يستطع أن يفعل، ثم يعلن تكتمه على هواه في البيت الأخير؛ فهو لا يشكو من الهوى حتى لو أن قلبه تحمل ما لا يستطيع أن يتحمل.

(١) الديوان، ٣٠٣.

فهو يختم ما استهل به بإعلانه لتكتمه على الهوى، مع أنه ينكر على نفسه ويلومها في المطلع إلا أن قلبه عصاه. فالاستفهام له علاقة مع خاتمة القصيدة تتمثل في الشكوى من الحب والهوى.

ونجده يستهل قصيدة أخرى باستفهام متصل بالخاتمة، فيقول في مطلعها [من الرمل]:

مَنْ مُجيري من فؤادٍ كلَّما ... اتَّقدَ البَرْقُ اليماني اتَّقَدَا
كادَ لولا أدْمُعي تَحرِقُهُ ... زفرَةُ الوجدِ بما قد وجَدا
عَرَفَ القلبُ يدَ العينِ بها ... إنَّ للعينِ على القلبِ يدا
لا أبيتُ اللَّيلَ إلاَّ راعيًا ... أنجُمًا سارتْ على غير حَدا
طال ليلُ الصّبّ حتَّى خِلْتُه ... جُعِلَ الليلُ عليه سرمدا[1]

فهنا جاء الاستفهام ب (مَن)، وفي مطلع القصيدة شكوى من الوجد والغرض منها النسيب، فبدأها متسائلًا من يجيره من فؤاده الذي كلما رأى البرق اليماني يتوقد اشتعل وتذكر أحبابه ومنازلهم، ولولا دموعه التي يذرفها عليهم لكادت زفرة الوجد تُحرقه؛ لما وجده من محبوبه، ويصف ألمه ومعاناته من العشق فهو لا يبيت الليل إلا مراقبًا للنجوم، وليل العاشق طويل فهو لا ينامه بل يتعذب بالسهر، كما أن الليل يذكره بمحبوبه فيتألم ويفارقه نومه لشدة شوقه، ثم يستمر في الشكوى من هجر الحبيب فهو يلقى من محبوبه أشد مما يلقاه من أعدائه ، ويتهم محبوبه بأنه رمى فؤاده بالحب عمدًا وليس بالصدفة أو بالخطأ.

فالاستفهام جعل من الشاعر بوابة لينثر همومه ويبوح بمعاناته من محبوبه الذي يتمنى أن يجيره من لهيب فؤاده. وهذا الاستهلال له ارتباط وثيق الصلة في خاتمة القصيدة، التي قال فيها:

خشيةَ الواشين صبٌّ لم يزلْ ... يُظهِرُ الدَّمعَ ويخفي الكمدَا

(١) الديوان، ٣٧٩، ٣٨٠.

أتُـــرى أحبابنـــا يـــوم النَّقَـــا وجـــدُوا مِـــن لوعـــةٍ مـــا وجـــدا
قـــد وَقَفْنـــا بعـــدَهم فـــي رَبعِهِـــمْ فبكَيْنـــا الـــدَّمع حتَّـــى نفـــدا
ثـــمَّ لمَّـــا نفـــد الـــدَّمع علـــى طَلَـــل الربـــع بكيْنـــا الجَلَـــدا[1]

فبعد رحلة من النسيب والشكوى من الوجد واللوعة يختم الشـاعر قصـيدته بسؤال آخر يعبر عن حيرته، فهو يقول: هل أحبابه في ذلك اليوم أصابهم شيء من اللوعة والحزن على الرحيل؟ فهو قد وقف بعدهم على تلك الربوع ثم بكى حتى نفد الدمع من عينيه، فالشاعر حافظ في ختام أبياته على ما استهل به من شكوى مـن الوجد وبكاء على كل ما يذكّره بديار محبوبه من طلل ومرابـع، وكـذلك البـرق اللامع. والاستفهام في المطلع ساعد الشاعر على جذب المتلقي لسماع ما فعلته بـه تباريح الهوى من أول القصيدة حتى خاتمتها.

ونجده في قصيدة أخرى يربط الاستفهام في مطلع القصيدة بخاتمها، وذلك في قوله [من الرمل]:

ناشِـداها عـن فـؤادي وسَـلاها أَهوًى غيـرُ هواهـا قـد سـلاها؟
واذكرانـي يـا خليلـيَّ لهـا فَعَسـاها تَـرحَمُ الصَّـبَّ عسـاها
واسـأَلا عـن مُهجـةٍ داميـةٍ رُمِيَت سهمَ غـرامٍ، مَـن رماهـا؟
لا أَبيـتُ اللَّيـلَ إلاَّ قَلِقًـا يمنع الوجـد مـن العـين كَراهـا
يـا غرامًـا بالـدُّمى مـا تنقضـي حسـراتٌ بالحشـا طـال مـداها[2]

ففي البيت الأول وجه خطابه لخليليه ويأمرهما بسؤال محبوبته أهوىً غيـر ذلك الهوى قد أبعد عنها الهم والحزن؟ ثم في البيت الثاني يكرر فعل الأمر علـى خليليه بأن يذكُراهُ لمحبوبته لعلها ترحمه وتخلّصه مما يعانيه بسببها، ثم في البيـت الثالث يقرر كذلك فعل الأمر على خليليه بأن يسألَا من رمى مهجته بسهم الغرام؟

(١) الديوان، ٣٨٠.
(٢) نفسه، ٥٤٣.

فهو لا يبيت الليل إلا قلقًا فالعشق يمنع منه لذيذ النوم، ثم يستمر في سرد معاناته من الصدود والهجران الذي تلقاه من محبوبه بعد أن سلّم لها قلبه فتركته يتلظى، بل زعمت أنه سيسلو بعدها لكن قلبه ذاب من شدة العشق ولم ينساها، ويشتكي من الواشي الذي سعى إليها بأمر ساءَها منه فاستمرت في صدودها وهجرانها، ثم يتسائل: ما الذي سيضرها لو أنها سمحت بالوصل يومًا له، فهو بذلك سيشفى من دائه، ثم يعود ليتذكر ليلة مضت بالقرب منها ويصف ما حدث فيها، إلى أن يصل نهاية القصيدة ويختم ما استهل به في قوله:

سوف أحظى بالتي أهْوى وإنْ ... منعوها عن عُيوني أن تَراهَا
أتُرى تُحجبُ عن ذي هِممٍ ... كسيوف الهند بتَّارٍ شباها
لو رأى من دونها نار الوغى ... تتلظى بالمنايا لاصطلاها
لا تَرقَّيتُ العلا إن لم أكنْ ... مُبلغًا نفسيَ بالسَّيفِ مُناها
فلئنْ خانتْ أخلّائي فمَا ... خانني من هِمَمي ماضي ظُباها[1]

فالشاعر يعلن أنه سيحظى بما تمناه وهو وصل المحبوبة، حتى وإن منعوها عن عيونه، فله همة قوية يشبهها بحدّ سيوف الهند فهي قاطعة ما كان أمامها، كما أنه لن يثنيه عن عزمه لوصلها لو كان دونها نار الوغى تتلظى لاصطلاها، ثم يؤكد على قوة عزمه بأنه حتى لو خانه أصحابه فلن تخونه همته.

فالشاعر تقوده الحالة النفسية التي يمر بها من الوجد وألم الصد والهجران إلى الاستعانة برفيقيه في المطلع بأن يسألَا محبوبته، ثم يعلن في خاتمة القصيدة أنه لن ينثني من وصلها حتى لو كان دونها أنواع العراقيل.

والأخرس افتتح قصيدته بالأساليب الإنشائية المتمثلة في الاستفهام والأمر والنداء، وذلك يجعل المتلقي في حالة انتباه، وفي تشوق لمعرفة الإجابة عن تلك

(١) الديوان، ٥٤٤.

الأسئلة التي طرحها في قصيدته، كما أن المتلقي ينتظر كيف سيُنهي الشاعر قصيدته التي جذبه مطلعها، فيأتي في خاتمتها ويعلن بأنه سينال مبتغاه من محبوبته.

وفي موضع آخر نجد علاقة بين الاستفهام والخاتمة، في قوله [من المتقارب]:

أَرَدَّ الدُّموعَ بأردانِهِ وكَفكفَ عَبرةَ أجْفانِهِ؟
صِيانَةَ سِرِّ الهَوَى يا (هُذَيْمُ) فباحَ البُكاءُ بكِتْمانِهِ
ولو أنكرَ الصَّبُّ أمرَ الغرامِ لَجاءَ الغرامُ ببُرهانِهِ
وإرسالُ عبرتِه في الديارِ تُعبِّرُ عن فرطِ أشجانِهِ
يحنُّ إلى أثلاتِ الغُوَير حنينَ الغريب لأوطانِهِ(١)

يستهل الشاعر قصيدته مستفهمًا ب (الهمزة) في قصيدة غزلية، فهو يتساءل بأسلوب تقريري ويخاطب صاحبه هل رد دموعه وكفكفها بأكمامه؟ ثم يسترسل مبينًا سبب تلك الدموع وهو حفظ وإخفاء سرّ الهوى فباح البكاء بما كتمه، كما أن العاشق الولهان لو حاول إنكار أمر غرامه لفضحه الغرام، فعَبرته عند وقوفه على ديار الأحبة دليل على شدة عشقه، وهو يحنّ إلى أشجار الأثل في تلك الديار كحنين الغريب لأوطانه، ثم يذكر هيامه لتلك الديار وسكانها، كما أنه ذل لسلطان حكم الهوى وهو راضٍ بتلك السلطة، ويذكر أن البرق علّمه شأن الغرام وأوقد بلمعته نيرانًا في قلبه.

ونجده قد اختتم قصيدته قائلًا:

رأى صاحبي آيةً للفؤادِ تدلُّ على ضدِّ سُلْوانِهِ
وكاد يصدقُ لولا الضَّنى بزورِ السُّلُوِّ وبهتانِهِ
فآمَنَ في مرسلاتِ الدّموعِ ولستُ أشكّ بإيمانِهِ

(١) الديوان، ٥٩٢.

يبين الشاعر في الخاتمة أن صاحبه رأى آية تدل على عدم نسيان الفؤاد لمن يهواه وإن طال الزمن، وهي المرض والهزال الشديد الذي يصيب العاشق، فما كان منه إلا أن آمن بمرسلات الدموع. فالخاتمة كانت تتمة لما استهل به الشاعر قصيدته.

أمّا الترابط النصي الذي ربط به بين الاستفهام في المطلع وبين الخاتمة فهو تكرار الدموع في الموضعين، ففي البيت الأول يقول: (أرد الدموع)، وفي البيت الأخير يقول: (مرسلات الدموع)، فالقصيدة مليئة بالحزن والأسى، والشكوى من الهوى.

الخاتمة:

وبعدُ، ففي ختام هذا البحث الذي حرصت – قدر جهدي – على إخراجه بصورة تفي بالغرض المرجو منه، ومن خلال دراستنا للاستفهام في مطالع الأخرس توصلنا إلى بعض النتائج، أهمها ما يأتي:

– افتتح معظم قصائده بمقدمات غزلية وكذلك طللية، فهو بذلك ينحو منحًى تقليديًّا، ويسير على خطى القدماء في مطالع قصائدهم.

– تعمَّد الأخرس في مطالع قصائده استخدام أدوات الاستفهام بكثرة، وكانت الهمزة في طليعة الأدوات الواردة في شعره، فقد افتتح بها ثماني عشرة مرة، ثم تلتها (هل) حيث استخدمها اثنتي عشرة مرة، ثم (مَن) حيث وردت في شعره إحدى عشرة مرة، ثم (ما) حيث وردت تسع مرات، ثم (متى) وقد وردت في مستهل خمس قصائد، ثم (أيّ) حيث وردت ثلاث مرات، ثمَّ (أين) التي جاءت مشتركة مع (كيف) في قصيدتين، وأما (كيف) فقد وردت وحدها مرة واحدة في شعره، ولم يستعمل الأخرس في مستهل قصائده غير ما ذُكر في البحث من أدوات.

– تعدّدت الأغراض الشعرية في القصائد المفتتَحة بالاستفهام، فجاءت في المدح والهجاء، وفي الغزل والرثاء، كما أنه استخدم الاستفهام للتعبير عن دهشته، وحيرته، وشكواه، وحنينه، ونفيه وإثباته، وتمنّيه، واستنكاره، واستبطائه، وتعظيمه لممدوحه، وغير ذلك.

– أضاف الاستهلال بالاستفهام إلى قصائد الأخرس حسن المطلع، فقد اعتنى بمطلع قصيدته؛ لعلمه بأهميتها لدى المتلقي، فوظف الاستفهام خير توظيف.

– طرق الشاعر أوزان الشعر العربي المعروفة، مثل: الطويل والكامل والرمل وغيرها من بحور الشعر، والأخرس يُعَدُّ من الشعراء الذين اتّسموا بالكثرة المفرِطة في إنتاجه الشعري.

– للاستفهام في مطالع شعر الأخرس ارتباط وثيق ببقية النص الشعري، فهو بمنزلة أسئلة تطرح في الاستهلال لتربط النص من مطلعه إلى خاتمته.

التوصيات:

بعد معايشة هذا البحث تبيَّن لي حاجة الباحثين إلى مزيد من البحث والدراسة في شعر هذا الشاعر، فالشاعر ذو إنتاج غزير، والدراسات عنه قليلة، فالحاجة ماسّة للعناية بشعره ودراسته دراسة أكثر تفصيلًا.

كما أنني أوصي بدراسة شعراء عصره – القرن التاسع عشر – والعناية بشعرهم، فالعديد منهم له إنتاج شعري لم يُعتنَ به، والبعض منهم لم تتم دراسة إنتاجه بعد.

قائمة المصادر والمراجع:

١/ أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، حسني عبد الجليل، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

٢/ الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

٣/ الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.

٤/البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، مكتبة البشرى، باكستان، ط١، ٢٠١٠م.

٥/ التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٣م.

٦/ الطراز الأنفَس في شعر الأخرس، أحمد عزت الفاروقي، مطبعة الشركة المرتبية، إستانبول، ١٣٠٤ه.

٧/ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، ط٥، ١٩٨١م.

٨/ الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ه، ج١.

٩/ المسك الأذفر، للسيد محمود شكري الآلوسي، مطبعة الآداب، بغداد ١٣٤٨ه.

١٠/ المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، علي توفيق الحمد ويوسف جميل الزعبي، دار الأمل، الأردن، ط٢، ١٤١٤ه.

١١/ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة ج٢، د.ت.

١٢/ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، للسيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

١٣/ ديوان عبد الغفار الأخرس، حققه وعلق عليه الخطاط: وليد الأعظمي، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط٢، ٢٠٠٨م.

١٤/ علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

١٥/ طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، شرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدّة، ج١.
١٦/ لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٩٩م.
١٧/ مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
١٨/ معجم الرائد، لجبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٧، ١٩٩٢م.
١٩/ مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكّاكي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.
٢٠/ نظرات في شعر الأخرس، عاتكة الخزرجي، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد٢٧، ١٩٧٦م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٩٥٥
٢-	Abstract	١٩٥٦
٣-	المقدمة	١٩٥٧
٤-	تمهيد:	١٩٦٠
٥-	الفصل الأول: أدوات الاستفهام في مُستهلّ شعر الأخرس	١٩٦٥
٦-	المبحث الأول: حرفَا الاستفهام في شعره:	١٩٦٥
٧-	المبحث الثاني: أسماء الاستفهام في شعر الأخرس	١٩٧١
٨-	الفصل الثاني: الاستهلال بالاستفهام وعلاقته بموضوعات القصيدة	١٩٨٣
٩-	المبحث الأول: علاقة الاستفهام بالفكرة الأولى	١٩٨٣
١٠-	المبحث الثاني: علاقة الاستفهام بخاتمة القصيدة	١٩٩٣
١١-	الخاتمة:	٢٠٠٣
١٢-	قائمة المصادر والمراجع:	٢٠٠٥
١٣-	فهرس الموضوعات	٢٠٠٧

تم بحمد الله